أسفار الشياطين



الكتــــاب : أسفار الشياطين

المـــؤلـــف :سامـح شوقـي

تـدقيـق لغـوي: عبدالله أسامة

تنسيـق داخلي : سمـــر محمد

الطبعة الأولى: ينـــايــر 2018

رقـــم الإيــداع : 2017/27127

978-977-6541-51-1 :I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

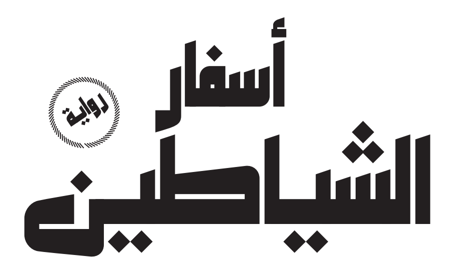
مدير التوزيع: عمر عباس

01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع



إذا صادفت بابًا مفتوحًا بين العوالم فلا تعبره..

فطريق العودة الوحيد هو الدم.

سامح شوقي



هناك كيانات كثيرة غامضة لطالما عاشت معنا على الأرض.. وسواءً عرفها البعض.. أو أنكرها البعض.. فهذا لن يغير من حقيقة وجودها شيئًا..

وإذا كانت المعرفة هي ظل الحقيقة.. فالحقيقة الكاملة تختفي خلف ستار رقيق.. ما علينا إلا أن نرفع الستار لنرى الحقيقة بوضوح..

ولن يرفع ذلك الستار إلا الإيمان.

الرواية مستوحاة من أحداث حقيقية

(١)

لست مخدوعًا..

ما رأيته كان حقيقيًا..

ما زالت لعنته تطاردني..

أشعر بها كل يوم..

وأحيا تحت وطأة ذلك الهجوم..

وأذكر أحداث تلك الليلة البعيدة كأنما كانت بالأمس..

كانت صاحبة هذا المنزل من الأشخاص المقربين.. كان الطلاء على جدران البيت يقع بشكل ملفت للنظر.. ورائحة النشادر كثيرًا ما كانت تملأ المكان.. وتتحرك مع صاحبة البيت من غرفة إلى غرفة.. استدعى رب هذه الأسرة شخصًا معروفًا بقدرته على طرد الأرواح

بعد أن فاض الكيل وبدأ الزوجان يشعران بأشواك في الفراش تمنعهما من الرقود كلما أرادا النوم.. أو تمددا على الفراش.. جاء ذلك الرجل متوسط الطول.. أبيض الوجه.. كث اللحية.. تبدو عليه علامات الطيبة والهدوء برغم أنه لم يكن بشوش الوجه.. طلب منا ألّا نصلي العشاء حتى يأتي لنصليه معه جماعة.. أخذ يتجول في المنزل فور وصوله وهو يستمع إلى شكوى أهل البيت وقصتهم.. ثم أجلسنا في الغرفة الرئيسية وذهب يؤذن للعشاء وهو يوجه صوته إلى كل أرجاء المنزل..

وما إن بدأ في الأذان حتى بدأت كل المصابيح الكهربية في البيت تنطفئ وتضيء من تلقاء نفسها حتى انتهى من الأذان فتوقفت هذه الظاهرة الغريبة.. ثم عادت مع الإقامة ثم توقفت أثناء الصلاة.

بعد الصلاة جلسنا جميعًا في الغرفة الرئيسية.. كانت غرفة متواضعة الأثاث.. ليس على الحائط سوى لوحة قماشية لآية الكرسي بالخيط البارز.. ومصباح في منتصف السقف قوي كفاية ليضيء الغرفة بالكامل.. بدأ رب المنزل (الأستاذ رؤوف) في محاولة لامتصاص الذهول بل الرعب الذي أصاب بعضنا من ظاهرة المصابيح الكهربية..

فقال: إن الكهرباء في المنطقة كثيرًا ما تتسبب في مثل هذه الظواهر....

إلا أن كلامه انقطع كما انقطع انتباهنا إليه من رائحة النشادر الفجة التي ملأت المكان فجأة.. لقد كان الأمر أشبه برائحة المراحيض العامة من شدة وفجاجة الرائحة.. وهي رائحة اعتاد أهل البيت عليها منذ بداية تجربتهم المريرة في هذا المسكن..

كان مقعدي في ذلك المجلس بجوار السيدة (راندا) صاحبة المنزل.. وهي سيدة شابة في الثانية والثلاثين من العمر.. لديها ثلاثة أطفال.. كانت تغيب معظم أيام السنة عن المنزل لعملها هي وزوجها في الخارج.. وما إن عادت إلى منزلها في ذلك العام منذ ستة أشهر حتى بدأت الظواهر في مصاحبتها وتحويل حياتها إلى جحيم من الأرق والرعب معًا.. قطع الأستاذ (نزار) طارد الأرواح الصمت المطبق الذي لف الغرفة بقراءة آية الكرسي بصوت مرتفع.. ثم تبعها بآيات متفرقة من سورة الصافات وخواتيم سورة البقرة.. إلى أن بدأت الرائحة في التلاشي من الغرفة شيئًا فشيئًا.. حتى لم يعد يشعر بها سوى أنا والسيدة راندا..

فقال لنا نزار: إن الكيان الذي يعبث بذلك البيت الآن يقف بينكما..

لم يتكلم أحد.. اكتفينا بالصمت والنظرات المتبادلة الحائرة حتى سأل نزار: هل رأى أحد ذلك الكيان بعينه؟

فقالت السيدة راندا فورًا: نعم أنا رأيته.

❀❀❀

كان رد السيدة راندا مفاجئًا لمعظم الجالسين.. فالسيدة راندا لم تقص على أحد تلك الحادثة المفزعة خوفًا من فرار الناس من زيارتها أو مساعدتها..

لاحظ نزار تلك المفاجأة على الوجوه فتابع مباشرة: قُصي عليّ ما حدث بالتفصيل..

قالت راندا: بدأ الأمر منذ فترة.. بعد وصولي من الخارج بحوالي أسبوع.. كنت كلما دخلت الحمام لأي سبب ولو لغسل يدي وعندما أغلق الباب أسمع صوتًا غريبًا.. لم أتبينه في البداية ولكن بدأت أتتبعه حتى استوعبته.. إنه صوت وشوشة كأن هناك من ينادي «بسست بسست».. ظننته من خارج الحمام لكني بعد فترة أصبحت أسمعه في أذني.. ثم بدأت أشعر بيد على جسدي.. مرة على كتفي ومرة على خصري.. ثم تبع ذلك شعوري بأنفاس تلاحقني أينما ذهبت.. وبدأت في ذلك الوقت ظواهر أخرى تظهر كانطفاء المصابيح وإشعالها تلقائيًا.. وبدأت رائحة بول في الظهور في المنزل.. في البداية كانت خفيفة تظهر وتختفي.. ثم ازداد الأمر سوءًا.. وبدأت تظهر حادة ومنفرة.. ثم جاء ابني الصغير يومًا مفزوعًا يبكي ويقول: أمي لقد رأيت وحشًا..

ثم أطرقت راندا شاردة وقالت: لم أكن أتخيل أن ما رآه ابني حقيقة حتى تلك الليلة السوداء منذ أسبوعين.

✿✿✿

كان الجالسون قد تعلقت أعينهم بالسيدة راندا وهم ينصتون إلى حديثها في ذهول بينما أخذ نزار يستزيدها في التفاصيل..

فقال بهدوء: ماذا حدث في تلك الليلة؟

فقالت: منذ أسبوعين تقريبًا في تلك الليلة المظلمة لم يكن أحد معي بالبيت.. كان الأولاد بالخارج مع أبيهم وكنت أرتب المنزل.. لم يكن في ذلك اليوم أي حدث غير معتاد أو حتى الرائحة المنفرة المعتادة.. كان كل شيء هادئًا تمامًا ومن غير المتوقع حدوث أي شيء.. توضأت ووقفت لأصلي العشاء هنا في هذه الغرفة -وأشارت بيدها- وقفت هنا حيث الحمام عن يميني إلى الخلف.. وكان المصباح كما ترى يُلقي بالضوء بشكل جيد ناحية الحمام.. وبدأتُ أصلي وبينما كنت أركع سمعت صوتًا قادمًا من الحمام.. تحديدًا كان صوت وعاء بلاستيك كبير يتحرك بل يسقط كأنما يضربه أحد ويقلبه على الأرض.. كان الصوت واضحًا لا يختلط على أذني ولا أشك فيه..

فخرجت بشكل لا إرادي من الصلاة لأنظر ناحية الحمام من مكاني..

فإذا بي أراه..

امتلأت عينا راندا بالدموع واختنق صوتها وهي تستطرد: رأيته يطل برأسه من الحمام.. كأنما يراقب من بالبيت.. كان ينظر إلى وجهي مباشرة.. كان رأسه عاليًا يكاد يلمس حافة الباب.. لم يكن في ذلك الرأس كثير من التفاصيل.. كانت لديه عينان مدورتان شديدتا

الحمرة.. كأنما كانتا جمرتين من نار.. وقرنان يبتدئان من جانب العينين ويرتفعان عاليًا ثم يستديران واحد إلى اليمين والآخر إلى اليسار ثم يهبطان إلى أسفل ويقتربان من الوجه ثم يبتعدان عنه في النهاية.. إنهما قرنان أشبه بشكل الأذن حتى إني ظننتهما أذنيه في البداية.. ولكنهما كانا أسودين شديدي السواد..

رفعت راندا إلينا عينيها وقد غلبها البكاء وهي تقول: لم أشعر بقدمي وأنا أجري وأخرج من باب البيت ولم أفق من الذهول إلا وأنا عند الجيران أستجير بهم ولا يفهمون ما هي شكواي.. وقررت المبيت خارج البيت في ذلك اليوم.. وقد كانت تلك الليلة أول يقيني بأن كيانًا مظلمًا وراء كل ما نعانيه.. وبدأت أشعر أننا يجب أن نوقف كل ذلك ونستعين بشخص ما.. ولكن ما حدث لاحقًا هو ما أجبرنا على الإسراع بتلك الخطوة واستدعائك يا سيد نزار لهذه الجلسة..

✿✿✿

قال نزار في نبرة لا تخلو من العطف على السيدة راندا وحالها الذي أصبح يُرثى له: اهدأي يا سيدتي واطمئني وبعون الله ستنتهي معاناتك بلا رجعة.. ولكن أخبريني.. هل أنت كثيرة الأحلام؟

- نعم.

- هل ترين في منامك بحرًا؟

- كثيرًا..

- هل ترين قططًا وكلابًا؟

- دائمًا..

- هل يظهر على جسدك بقع زرقاء؟

- نعم ولا أفهم لها تفسيرًا..

فقال نزار بثبات: كل هذه علامات مميزة لما تمرين به.. وهي إشارات لوجود نشاط شيطاني حولك..

فقالت: هل هو عمل؟

فقال: بل هو سحر.. مقصود به التفرقة بينك وبين زوجك.. وطردكما من هذا البيت.. لقد شعرت به عندما دخلت البيت.. وانقبض صدري وأحسست بحرارته في المكان.. وازدادت شكوكي عندما مررت بجاركم في الطابق الثالث..

فانتفض الجالسون -وكنت منهم- متسائلين: لماذا بالتحديد ذلك الجار وتلك الشقة.. فهذه البناية الطابق فيها به شقة واحدة.. فشخص واحد بعينه هو المقصود.. فلماذا؟

قال نزار: ما بالكم ألم تلاحظوا تلك المقشة المعلقة على الجدار بجانب باب تلك الشقة؟ ألم تروا النعلين المتصالبين المعلقين بجوارها؟

فرد رؤوف: لا ندري شيئًا ذا معنى عن هذه الأشياء ولم نظنها إلا عادة ذلك الجار.. اعتاد أن يضع أشياءه بهذا الشكل وقد وضع أشياء أخرى على السلم كحافظة الأحذية وقفص للبصل والثوم وأشياء تنم عن اعتياده إخراج هذه الأشياء من البيت..

فقال نزار: بل هي أيقونات للسحر والشعوذة ومعها تعلق الطلاسم وتمرون عليها في الصعود والنزول وهي مقصودة وموجهة إليكم على ما أعتقد.. والأشياء الأخرى هي لتشتيت الأنظار.. ولكن أخبروني لماذا أثارت سيرة ذلك الجار انتباهكم؟

قال رؤوف: لأن هذا الجار بالذات نترك له مفتاح شقتنا كل عام ونحن في الخارج.. ليعتني بها.. ويفتحها للتهوية كل فترة.. لا سيما وبيننا وبينه من القرابة صلة..

فسأل نزار متعجبًا: فلماذا لم يحضر تلك الجلسة؟

فردت راندا: لقد أخبرني الجيران في البناية المقابلة أنهم رأوه في شقتنا وكان ممسكًا بإناء فخار ويرش منه على الأرض في كل أركان الشقة قبل أن نصل من الخارج بأيام.. ولما تنبه لمن يشاهده أسرع بإغلاق النوافذ.. وعندما سألناه عن ذلك أنكر تمامًا.. وهذا ما أصابنا بالشك من جانبه.. فأخفينا عنه شكوانا بعد أن أخبرناه بها في البداية ولم نلحظ منه اهتمامًا أو محاولة المساعدة لحل المشكلة..

قال نزار: حسنًا فعلتم فإن مث....

نظر الجميع إلى نزار الذي انقطع كلامه فجأة ليجدوا على وجهه نظرة واجمة تبدو منها الصدمة.. كانت عيناه مثبتتين على حائط من الغرفة المجاورة يبدو واضحًا من باب غرفة الجلسة.. وعليه صورة معلقة لقطتين تقفان بعضهما أمام بعض..

فسأله رؤوف: هل هناك مشكلة؟

نزار: بل مشاكل.. كم صورة لديكم مثل تلك الصورة في هذه الشقة؟

رؤوف: حوالي أربعة.. ولكن لماذا؟

فرد نزار وعيناه معلقتان بالصورة: ألا ترون فيها شيئًا غريبًا؟

فقمنا جميعًا لننظر ماذا يقصد..

وعندما هممنا بالتوجه للباب.. سمعنا صوتًا عنيفًا في السقف.. كصوت جر الأثاث.. كأنما يجر الجيران في الأعلى منضدة ثقيلة أو مقاعد خشبية كبيرة..

فنظر الزوجان بعضهما لبعضٍ في فزع شديد..

فقال أحد الحاضرين: لا تفزعا يبدو فقط أنهم الجيران في الأعلى..

فنظرت إليه راندا وقد شحب وجهها وقالت: نحن نسكن في الدور الأخير.. لا يوجد فوقنا أحد ومفتاح السطح معي هنا..

ساد الصمت لحظة.. قبل أن نسمع صوتًا شديدًا لزجاج يتحطم.. وعندما هممنا بالتحرك لمصدر الصوت.. انقطعت الكهرباء..

✿✿✿

كاد الرعب يقتلنا.. للحظات غرقنا في الظلام الدامس.. وكان لا يزال صوت الزجاج ينبعث ولا ندري تحديدًا من أي غرفة كان يأتي.. والصوت الذي يأتي من السقف يتغير إلى صوت جر أنبوبة غاز ثم يعود إلى صوت جر أثاث خشبي.. لم نملك رباطة جأش كافية أو حتى الوقت لنستوعب ما يحدث حتى عادت الكهرباء فجأة وانقطعت جميع الأصوات..

كانت ثوانٍ بعد رجوع النور كافية لنتنفس الصعداء ونكتشف أن السيدة راندا قد اختفت..

هممنا سريعًا بالبحث عنها ولم يكن هناك مكان في البيت أقرب إلى تفكيرنا في تلك اللحظة من الحمام.. وبالفعل دخلنا الحمام لنجدها ملقاة على ظهرها في وضع استرخاء تام.. كأنها نائمة.. أخرجناها ورش زوجها على وجهها بعض قطرات من ماء لتستفيق..

عاد إليها وعيها لكن لم يعد إلى ذاكرتها ذكرى واحدة مما حدث منذ أن انقطع النور.. فلا هي سمعت ما سمعنا ولا تدري ما الذي ألقاها على ظهرها فاقدةً وعيها في الحمام..

لم نشأ أن نجهدها أو نثقل عليها.. هدأنا من روعها.. وسقيناها كوبًا من العصير..

بعد دقائق كانت قد هدأت نفوسنا واستأنسنا بنزار ذلك الرجل الذي تبعث كلماته على الطمأنينة وتشجع على مواجهة الموقف بثبات.. أخذ يقص علينا كيف أنه يعمل مدربًا للكونغ فو.. وهو حريص على لياقته ومهارته لأنه كثيرًا ما يدخل في اشتباك بالأيدي مع بعض الكيانات الشيطانية التي تتلبس ببعض الناس وتصرعهم وتتحدث على ألسنتهم.. وقد يستخدم جسد ضحيته في الاشتباك.. وعندما يعود الشخص رجلًا أو امرأة إلى وعيه فإنه لا يذكر التضارب الذي تم ولا الألم الذي كان يعانيه..

سألناه عما كان قد رآه خارج الغرفة قبل بداية الأحداث الغريبة منذ قليل.. ولكنه أخذ يراوغ ولم يخبرنا بشيء بل أخذ يلح على ضرورة التخلص من صور القطط تلك خاصةً الصورة التي نجد في عيونها لمعانًا واضحًا فإنها مسكن للشياطين..

كنا على يقين أنه رأى شيئًا ما ولم يشأ أن يخبرنا به.. فليس في الإخبار فائدة تُرجى.. فلن يضيف شيئًا إلا مزيدًا من الرعب للموقف والحضور.. توجه نزار للسيدة راندا متسائلًا: هل أنت على استعداد لاستكمال الجلسة؟

فردت في إصرار: نعم بكل تأكيد..

قال بنبرة ودودة وابتسامة هادئة: حسنًا.. قلت أن بعد تلك الليلة منذ أسبوعين حدثت بعض الأشياء التي دفعتكم للبحث عن رجال مثلي..

فأومأت له راندا بالإيجاب..

فقال: ماذا حدث بالتفصيل إن لم يكن في ذلك ضغط على أعصابك؟

قالت: لا بأس سأحكي لك.

✿✿✿

توجه الجميع منصتين لراندا التي بدت في حالة تركيز شديدة وقوة لم تكن عليها في بداية الليلة..

قالت بصوت مرتفع ونبرة قوية: بعد تلك الليلة المشؤومة بيومين كان والدي في زيارة لنا.. أتى من الصعيد ليزورنا ودخل لينام بعد العشاء.. وبعد حوالي ساعتين من نومه.. قام مفزوعًا وجاء إلى هنا وهو يقول: خير يا رندا ماذا حدث؟ ولماذا تصرخين؟

– أنا لم أصرخ ولم أناد عليك ولم أفتح فمي بكلمة.. فالأولاد نائمون ولا أريد إيقاظهم..

– ولكني سمعت صوتك تصرخين بشدة وتناديني باستغاثة..

فشعرت أن أبي يتعرض لهجوم من ذلك الكيان أو على الأقل شيء من المضايقة.. ولم أشأ أن أخبره بما يحدث لنا حتى يستطيع النوم.. فأكدت له أنه رأى كابوسًا وطمأنته على الجميع.. ودخل أبي لينام غير مستريح لذلك الموقف.. وقبل الشروق استيقظت لأصلي الفجر فإذا بي أرى أبي يقف في الشرفة.. فاقتربت منه وقلت: صباح الخير يا أبي.. أصليت الفجر؟

فلم يرد عليّ ولم ينظر خلفه.. كل ما فعله أنه صعد فوق السور وقفز في الشارع..

فصرخت مفزوعة وجريت نحو الشرفة أنظر إليه وما إن دخلت الشرفة حتى سمعت صوت أبي من خلفي يقول بهدوء: صباح الخير يا راندا..

۞۞۞

كانت أنفاسنا قد احتبست ونحن نستمع إلى هذه القصة وكان سكوتنا فيه استزادة للحديث وذهول ممزوج بالرعب.. استطردت راندا: جريت على أبي واحتضنته وبكيت..

فقال لي: اهدأي يا بنيتي.. أنا أفهم ما تعانيه..

فنظرت إليه متعجبة.. فبادرني بالكلام: أنا تعرضت للهجوم.. أعرف تمامًا سبب انزعاجك.. وإن كنت لا أعرف تفاصيله..

- كيف؟ ماذا حدث لك يا أبي؟

- نصلي الفجر جماعة ثم أقص عليك ما حدث..

بعد الصلاة جلسنا قرب الشرفة وقال لي:

- ما حدث ليلة أمس لم يكن حلمًا أو كابوسًا.. سمعتك تصرخين ولم أكن أتوهم ذلك.. لقد عدت إلى فراشي وتظاهرت أني اقتنعت بكلامك عن الكوابيس.. ولكني بعد منتصف الليل قمت مرة أخرى على صوت أمك رحمها الله تناديني.. كان صوتها مرتفعًا كأنما تناديني من مكان بعيد.. قمت وخرجت إلى الصالة ثم إلى الشرفة.. لأنظر في الشارع.. فلم أجد أحدًا.. ولكني عرفت وقتها أن ثمة شيطانًا هو من يفعل ذلك.. فأنا قد تعرضت للنداهة وأنا صغير.. وأعرف تلك اللعبة جيدًا..

- أنا لم أسمع تلك القصة من قبل.. متى نادتك النداهة وكيف تصرفت؟

- نادتني النداهة وأنا طفل صغير بصوت أمي وسمعها معي الشيخ عيسى إمام المسجد فأمسك بي ومنعني من الذهاب خلف صوتها.. وعندما صرخت قال إنها ليست أمك وأجبرني على الذهاب للبيت معه وعندما أعادني لأمي وقص عليها ما حدث.. بكت وأقسمت أنها لم تخرج من البيت وظلت مدة طويلة تبكي من خوفها الشديد من أن يناديني الجن وأذهب ولا أعود..

ومنذ ذلك الوقت لم ينادني أحد قط من مكان لا أراه مباشرة إلا وأهملته تمامًا.. ولكني اليوم لم أقاوم صوت أمك الذي اشتقت إليه كثيرًا.. فلما لم أجدها وفهمت ما يجري.. وقفت وبكيت.. وبعد أن مسحت دموعي وأردت أن أعود للفراش.. التفتُّ خلفي.. فإذا بي برجل ملتصق بي كادت أنفه أن تلامس أنفي.. كان شيخًا كبيرًا أبيض الشعر واللحية.. كان كلٌّ من شعره ولحيته شديد النعومة حتى ظننته من رجال الأساطير.. ولكن....

- أكمل يا أبي.. ولكن ماذا؟

- لم تكن له عيون...

- ماذا؟ كيف؟

- كان جبينه عريضًا واسعًا ينتهي عند أنفه.. لم يكن في وجهه غير الأنف والشارب واللحية والشعر.. كانت ملابسه رمادية رثة.. وما إن واجهته حتى شعرت بدبيب نمل في جسدي كله.. شُلت حركتي تمامًا.. كنت أحاول رفع يدي أو تحريك قدمي ولكن لم أفلح.. حاولت أن أفتح فمي لأقرأ قرآنًا.. ولكني أيضًا لم أستطع.. شُل جسدي كاملًا ولم يبق سوى عقلي يقظًا محاولًا أن يتخلص من القيود الخفية على الجوارح دون جدوى.. سمعت صوت أنفاسه عاليًا وبه أنين.. وشممت رائحة نشادر عنيفة.. ثم فجأة بدأ التنميل الذي بجسدي يزول تدريجيًا وبدأ معه جسد هذا الكيان يتبدد كأنه سحابة دخان تتبدد في الهواء.. حتى

اختفى تمامًا.. وخرج جسدي من أسر ذلك الهجوم.. فسقطت على الأرض..

۩۩۩

لم يكن هناك تعليق يمكن قوله على كلام السيدة راندا.. كان هناك ألف سؤال بداخلنا.. ولكن لا كلام.. كنت شخصيًا أبحث عن حروفي وصوتي ولكني لم أجدها لأسأل.. كنت أخشى أن أسألها فأقطع الحديث ولا نعرف نهاية الأحداث الغريبة التي تحدث في ذلك البيت الملعون.. وأظن أن الآخرين كانوا كذلك أيضًا.. سكتنا لنفسح لها المجال للكلام ولم تتوقف هي عن الحديث.. واستطردت قائلة:

- قال أبي هذا الكيان قوي وبغيض.. لا أدري أهو متسلط عليكم بنفسه أم أنه مسلط بالسحر من قبل أحد.. لا أدري ولكن يجب مطاردته وحربه فورًا.. أكثروا من قراءة القرآن في البيت وأكثروا من البخور.. وأنا سأسأل عندنا في الصعيد عمن يستطيع أن يطرد ذلك الشيء.. ولكن نصيحتي لك ألا تخافي.. لأنه يتغذى على الخوف.. قاوميه ولا تستسلمي أو تهربي من مواجهته إذا ما رأيتيه.. والله معك.. فالثبات في مواجهته يقلل من حالات ظهوره وتجسده.. ويضعف قوته.. وأسرعي في البحث عمن يطرده وأنا أيضًا سأبحث..

كان ذلك هجومًا تعرض له أبي ثم سافر إلى الصعيد وأخبرنا عنك يا سيد نزار وقال أنه سيرسل لنا رقم هاتفك لنستشيرك في أمر هذا البيت..

قال نزار: أعتقد أن ما رآه والدك فيه الكفاية من الرعب لتطلبي النجدة من أي إنسان..

فرد زوجها السيد رؤوف: كنا نظن ذلك.. كنا نظن أنه لا شيء أسوأ يمكن أن يحدث.. لولا ما حدث بعد ذلك بثلاثة أيام..

۞۞۞

كان الحاضرون في هذه الجلسة سبعة أفراد.. كنت واحدًا منهم.. بل كنت واحدًا من أقربهم إلى راندا التي كانت صديقة مقربة لعائلتي وكنت في مقام الأخ بالنسبة لها.. وكنت على علم بكثير مما تعرضت له تلك العائلة.. ولكني لم أكن على علم بالظواهر العنيفة التي تعرضوا لها بالكامل.. فكان في كثير مما تحكيه راندا مفاجأةً لي.. كان زوجها السيد رؤوف شابًا في السادسة والثلاثين من العمر.. كان ضخمًا قاسي الملامح.. لكنه طيب القلب ودود..

قال رؤوف بصوت هادئ لا يخلو من الخوف: كنت جالسًا في ذلك اليوم بعد صلاة العصر أشرب الشاي.. كنت على مقعد في غرفتي في مواجهة الشرفة.. كان معي أبنائي وكانت راندا تجلس في المقعد المقابل.. وبينما أنا جالس شعرت كأن أحدًا مر من جانبي.. لم يكن أحد من الأولاد.. كان أبنائي كلهم أمام عيني يلعبون.. لم يكن شعورًا فقط.. كان حقيقة.. لقد شعرت بلمس جسده لجسدي ثم شعرت كأن يدًا فوق ذراعي..

قاطعته راندا موجهة كلامها إلى نزار: لا أعرف كيف حدث ذلك.. فجأة رأيت «رؤوف» رافعًا ذراعه وهو ممسك بكوب الشاي حتى أصبح ذراعه في مستوى رأسه.. فسألته: ما بك يا رؤوف لماذا ترفع يدك هكذا؟ ولكنه كان واجمًا ولا يرد.. ينظر بعين مذهولة إلى ذراعه..

صمت فترة ثم قال: أنا لا أفعل شيئًا.. انظري إلى كم قميصي..

فنظرت فإذا بكم قميصه من عند معصمه مشدود ويُرفع لأعلى وترتفع معه ذراعه كأنه مربوط بخيط ويُشد من أعلى.. كنت أفكر كيف أتصرف بسرعة.. فقمت من مقعدي مسرعةً نحو ذراعه.. أمسكتها بهدوء.. فإذا بنا نسمع صوت أقدام مسرعة تجري أمام باب الغرفة من الخارج.. كان أبناؤنا معنا في الغرفة.. فجرينا ناحية الباب لنرى من بالخارج.. ولن تصدقوا ما حدث.

فقال نزار: لماذا ما الذي حدث؟

راندا: رأى كل منا شيئًا غير الذي رآه الآخر..

نزار: كيف؟

راندا: أما أنا فرأيت قطًا أسود لم يكن مثل أي قط يمكن أن تراه.. كان أشعث مفرق الشعر كأنما أصابه جرب.. وكأن ذيله مقطوع أو مصاب.. كان سمين البطن يتهدل جسده وهو يسير.. ولسانه خارج من فمه كأنه مقطوع يتدلى من فمه.. جرى ناحية باب الحمام وقفز إلى الداخل فأسرعت إليه خائفة وتناولت عصا كانت في طريقي ودخلت الحمام فلم أجد شيئًا.. فارتعبت خوفًا.. عندها سمعت صوت

رؤوف يصرخ في غرفة الصالون فأسرعت نحوه: ماذا بك يا رؤوف؟

قال: كان هنا واختفى..

فقال رؤوف مقاطعًا راندا: نعم أنا متأكد مما رأيت.. كان كلبًا أسود ولكن ملامحه لم تكن كالكلاب.. كان غريبًا لا صوت للهاثه أو أثر للعابه الذي كان يسقط منه باستمرار.. نظر إليّ فور أن خرجت من الغرفة وجرى حتى دخل غرفة الصالون فدخلت وراءه فلم أجد شيئًا..

فأخذت راندا وخرجنا من الصالون لنفتح القرآن في المنزل.. ولكننا عندما وصلنا للغرفة الرئيسية تجمدنا في مكاننا كأنما شُلت أقدامنا من هول ما رأينا..

فنظر إليه نزار مذهولًا: ماذا رأيتم هذه المرة؟

تابع رؤوف قائلًا: كانت كل محتويات الغرفة على الأرض.. الكتب التي كانت في المكتبة على الحائط كانت مبعثرة.. كل براويز الصور.. التلفاز والكاسيت.. أواني الزهور وحاملات الشموع.. كل شيء بلا استثناء كان على الأرض في فوضى عارمة كأنما انفجرت قنبلة في هذه الغرفة.. كانت رائحة حريق خانقة تملأ الغرفة مختلطة برائحة نشادر.. لم تكن تلك هي المفاجأة التي تشل الأقدام.. كنا ننظر إلى ذلك المنظر المريع في ذهول ولكن الذي حبس أنفاسنا حقًا هو ذلك الرجل الذي وجدناه جالسًا على الأريكة في هدوء..

قال نزار: هل كان رجلًا حقيقيًا من لحم ودم؟

قال رؤوف: لا لم يكن كذلك..

نزار: إذن صف لي بالتفصيل ما رأيت..

رؤوف: كان كيانًا دخانيًا على هيئة رجل.. لم يكن في وجهه أي ملامح.. ثم بدأت تظهر ملامحه شيئًا فشيئًا.. كان بلا عيون.. لكنه كان يتجه بوجهه ناحيتنا.. كان يبتسم ولكن عندما بدأت عيناه في الظهور بدت ابتسامته خبيثة فيها من التحدي بقدر ما فيها من تشفٍ وانتصار.. ظهرت عيناه لحظة أو لحظتين قبل أن يختفي ويتبدد جسده في الهواء.. مخلفًا رائحة عفنة.. وتاركًا إياي في ذهول ورعب.. وتاركًا راندا على الأرض فاقدةً وعيها..

✿✿✿

تنهد نزار بعمق وهز رأسه كأنه يريد أن يوقظ نفسه من غفوة.. أو يزيل الشرود عن عقله.. وقد اعتدل ورجع بظهره إلى الخلف.. وصمت برهة ثم قال:

- حسنًا بعد كل ما سمعته أعتقد أن ما نواجهه الآن شيء آخر أكبر بكثير مما كنت أتوقع.. ولكن الخبر الجيد هو أنه لا شيء في الدنيا يخرج عن سلطان الله ومشيئته.. الله هو المهيمن والمسيطر والقاهر فوق عباده.. لا شيء يُستثنى من هذا السلطان.. ولا يتحرك بمعزل عن هذه المشيئة.. لا بأس من الشعور بالخوف ولكن لا تسمحوا بالفزع أن يتملككم.. فإن الشجاعة والإقدام والجرأة في مواجهة هذه الكيانات

تقلص قدرتها.. وكلما زاد الرعب زادت الهجمات وزادت حالات التجسد.. إنه شيء مثل الاضطهاد.. مثل مطاردة الوحش لفريسته.. خوفها هو ما يشجعه على مهاجمتها ويشلها عن المقاومة.. إن الخوف قد يدفع الفريسة أحيانًا تجاه المفترس والمواجهة بقوة وإيمان هي ما تنهي هذه الأحداث في غالب الأحيان.. سنقوم الآن بعملية طرد لهذا الشيطان ولكن علينا جميعًا أن نتكاتف كي ننتصر.. فهل الجميع مستعدون؟

نظر بعضنا إلى بعضٍ ثم أجبنا في صوت واحد: نعم.

فطلب نزار من رؤوف أن يحضر قلم رسم (فلوماستر) أحمر.. وقطعة قماش كبيرة بيضاء طولها متر مربع.. وطلب وعاء ماء كبير من الأطباق المستخدمة في غسل الملابس حتى تكون سعته كبيرة تقريبًا عشرين لترًا من الماء..

ذهب رؤوف لإحضار المطلوب ولم يغب كثيرًا.. ثم أخرج نزار من حقيبته كيسًا كبيرًا من الزعفران أخبرنا أنه من نوع جيد جدًا.. وقام بإذابته في الماء في الطبق الكبير فتحول لون الماء إلى الأصفر المائل للحمرة.. أخرج مجموعة من الأوراق مكتوب فيها آيات قرآنية متفرقة من سور شتى.. وقال لنا: على الجميع أن يجلسوا وأن يكونوا على مقربة من بعضهم البعض.. وعلى من يخاف ألا يحضر تلك الجلسة.. لأن الجن قد يتلبس بأي شخص في هذه الغرفة وهو غالبًا يبحث عن

الأضعف.. والأكثر خوفًا هو الأكثر ضعفًا.. وهو الأكثر عرضة للتلبس.. وإذا ما شعرتم بشيء من النشاط الشيطاني فلا تفزعوا.. تماسكوا وعليكم بقراءة آية الكرسي..

توافق الجميع على القبول وقررنا خوض التجربة بثبات وتحدٍ..

وبدأت جلسة الطرد..

✿✿✿

وضع نزار يده داخل الماء.. ثم بدأ في قراءة الآيات من الورق الذي بين يديه موجهًا فمه نحو الماء.. ولم يكد يبدأ في قراءة الآيات حتى انتشرت رائحة النشادر في البيت كله وكانت تشتد شيئًا فشيئًا.. لم يكن نزار يشمها فحاولنا تنبيهه لها.. فأنهى آية كان يقرأها ثم قال: اقرأوا آية الكرسي..

بدأنا في قراءة آية الكرسي ولكن الرائحة لم تذهب.. كانت شديدة ومنتشرة وفجة جدًا.. وفجأة نظرنا إلى بعضنا البعض في نفس الوقت وقد فغر كل منا فاه في تعجب.. لقد أصابنا نفس الشيء في آن واحد..

نظر إلينا نزار في هدوء وقال: أعرف ما أصابكم.. لقد نسيتم آية الكرسي فجأة كأن لم تتعلموها قط.. فأجبنا كلنا: بالضبط..

في الواقع لقد كنت في حيرة من أمري وذهول.. فتلك التجربة كانت الأولى بالنسبة لي.. ولم أشك يومًا أن تذهب كلمات آية الكرسي من عقلي وذاكرتي قط.. لقد كانت مثل اسمي في الذاكرة والوجدان.. جزء لا يتجزأ من عقلي ولساني يوميًا منذ حفظتها في طفولتي.. كيف أستدعيها الآن ولا أجدها.. كيف أتوقف في منتصف قراءتها وأنسى تتابع الكلمات.. كيف يصيب ذلك جماعة من الناس في آن واحد.. هل يملك الجن هذه القدرة الغريبة؟ هل فعلًا يستطيع الجن أن يُذهب العقل؟ ويجعل الإنسان مشردًا يهيم في الطرقات ولا عقل له؟

إن كلمة مجنون ليست مصطلحًا علميًا.. ولكنها كلمة استخدمها الأقدمون في تسمية من يذهب عقله بسبب الجن.. فسموه نسبة للجن «مجنون».

لقد جربت شيئًا من ذلك بنفسي الآن.. وقناعتي بتأثير الجن على الإنسان الآن لا يمكن أن تتزعزع.. جالت تلك الخواطر بعقلي في لحظات قبل أن يكمل نزار كلامه قائلًا: من يشعر بضياع آية الكرسي من عقله فليصلِ على النبي..

صليت على النبي مرة وكان العجيب أني تذكرت الآية من الكلمة التي توقفت عندها سابقًا ولم أحتج أن أعيد الآية من البداية.. لقد كانت تجربة لم أمر بها من قبل.. ذلك التأثير الذي تسلط على عقلي والذي عالجته فعولج.

ولكن يبدو أن الأمر لم يكن بهذه السهولة مع بعض الجالسين فقام رؤوف بإنزال آية الكرسي المعلقة على الحائط ووضعها أمامنا لنقرأ منها حتى لا ننسى..

كانت رائحة النشادر تزداد وتشتد قبل أن تنقطع الكهرباء ونغرق في ظلام عميق.

❀❀❀

في وسط ذلك الظلام سمعنا «نزار» يقول: لا تتحركوا واستمروا في قراءة آية الكرسي..

كان الغريب في الأمر أن خوفنا بدأ بالفعل في الزوال.. لقد أصبحنا أقوى وأشجع وأكثر تحديًا وإصرارًا.. لا أدري هل كان ذلك بتأثير من كلمات نزار أم كان تبلدًا أصابنا من جراء ما رأيناه وسمعناه في تلك الليلة.. لا أدري السبب ولكني بالفعل بدأت أشعر بتبدد الخوف مني بدرجة كبيرة جعلتني أكثر ثقة في قدرتي على مواجهة ذلك الشيء..

كانت هناك أصوات مختلطة لم نفهمها.. نوع من الهمهمة.. وصوت حركة غريب لم يكن معتادًا منذ حضرنا في المنزل.. وطالت فترة انقطاع الكهرباء وأصبح اعتمادنا على إضاءة الهاتف الجوال غير مُجدٍ.. فقام رؤوف سريعًا بإشعال الشموع التي كانت جاهزة على شمعدان على مكتبة كتب حول التلفاز.. أشعل مجموعة شموع أخرى ووضعها على جانب آخر من الغرفة ألقى بضوء الشموع الهادئ ناحية

الحمام الذي كان بابه نصف مفتوح.. أنهى نزار قراءة الآيات بالكامل وكانت الرائحة والأصوات المختلطة قد اختفت تقريبًا..

ساد الصمت لحظة شعرنا فيها بالسلام وكأن الأمر قد انتهى.. وقال نزار: الحمد لله أنهينا القراءة على الماء..

فسأل أحد الحاضرين «نزار»: هل انتهى الأمر هكذا وطرد ذلك الكيان؟

وقبل أن يهم نزار بالرد جذب انتباهنا صوت باب الحمام يُفتح رويدًا رويدًا.. وسمعنا جلبة شديدة في الحمام.. فتوجهنا بأنظارنا نحوه ليتجمد كل منا في مكانه فزعًا..

لا صوت ولا حركة..

كانت مفاجأة تُجمّد الأعصاب..

ثم شممنا رائحة حريق خانقة مخلوطة بالنشادر فجأة..

ثم عادت الكهرباء.

✿✿✿

كان رجوع الضوء للمنزل هو الشيء الوحيد الذي أنقذ قلوبنا من أن تتوقف.. بل إنه كان السبيل الوحيد لاسترخاء أعصابنا التي كانت مشدودة إلى حد التشنج.. ظل الصمت مخيمًا علينا لدقائق بعد

رجوع الكهرباء ربما كانت الصدمة هي التي سيطرت علينا ومنعتنا من الكلام.. حتى نزار الذي كان أكثرنا ثباتًا وخبرة ومعرفة بهذه الأمور.. كانت الصدمة واضحة على ملامحه لأول مرة منذ رأيناه.. وأظن أنه لولا رنين الهاتف الذي فزعنا لسماعه لظل الصمت طوال الليل مخيمًا على هذه الجلسة..

أشاح رؤوف بيده ضيقًا بحركة معناها تجاهلوا هذا الرنين فلست على استعداد للرد.. وكانت راندا تحبس دموعها التي تزاحمت على عينها حتى لم تكد ترى شيئًا حينما سألتُ أنا: هل رأيتم ما رأيت؟

وكأن سؤالي قد فتح الباب المغلق فانطلقوا واحدًا تلو الآخر: أنا رأيت شيئًا..

وقال آخر: أنا لا أعرف هل رأيته وحدي أم لا..

وقال أحدهم أيضًا: أنا رأيت ما أعجز عن وصفه..

فقال نزار: حسنًا يبدو أننا رأينا نفس الشيء..

✿✿✿

ما رأيناه كان مرعبًا كفاية لتنعقد ألسنتنا عن الحديث.. ربما لم يكن باستطاعتنا حتى الاستعاذة أو التفكير المنطقي المرتب في كيفية التصرف.. فإذا كانت المفاجآت تربك التفكير.. فالإصابة بالذعر تشله تمامًا..

كان الضوء خافتًا.. ثلاث شموع على مسافة أكثر من مترين تُلقي بضوئها ناحية باب الحمام.. ذلك الباب الذي بدأ فجأة يُفتح ببطء مطلقًا صوت صرير الأبواب القديمة.. عندما سمعنا جلبةً شديدة لم نفهم معناها ولا سببها.. فنظرت ناحية باب الحمام.. واتجه الجميع بأنظارهم صوبه.. فرأيت كيانًا رهيبًا يخرج بهدوء شديد من ذلك الباب..

ما هذا الشيء الضخم المفزع؟

أهو حصان؟ يا إلهي.. ما هذا الفزع الذي يتملكني؟

إنه ليس حصانًا.. إن نصفه السفلي جسد حصان أو ثور كبير.. والنصف العلوي جسد إنسان غزير الشعر!

صعّدتُ فيه النظر.. يا إلهي ما هذا الجنون؟

إن رأسه ليس رأس إنسان.. هذه العيون الحمراء كجمر النار في ضوء الشموع الخافت.. والقرون الكبيرة الغليظة المعقوفة تخرج من بين شعر كثيف غليظ كالثعابين الصغيرة التي تتحرك في كل اتجاه كأنها تبحث عن فريسة.. تخرج القرون وتعلو وتتجه لليمين واليسار ثم تنزل إلى أسفل مستوى الذقن متجهة نحو الوجه ثم تعود فتلف في الاتجاه المعاكس وترتفع قليلًا لتنتهي بشكل مدبب.. ذقنه كذقن الجدي.. وجهه مثلث قاعدته لأعلى.. فم نصف مفتوح يتدلى منه لسان كلسان الثعبان.. يخرج ويدخل كما تصنع الأفعى.. إنه ليس حصانًا ولا إنسانًا..

إنه شيطان..

خرج بهدوء ووقف ينظر إلينا.. رأى كل منا أنه يحدق فيه وحده..

يا ربي ما هذا الذي أراه؟ هل هذا يحدث فعلًا؟

ملأت المكان رائحة حريق شديدة وخانقة كأنه مطاط يحترق.. رائحة نشادر عنيفة مختلطة أيضًا كانت تملأ المكان..

أردت للحظة أن أبكي من الفزع والضيق والاختناق..

ولكن.. عاد النور..

واختفى ذلك الشيء المفزع مخلفًا إيانا في صمت وشرود..

✿✿✿

عندما قصصت ما رأيته على الحاضرين اتفقوا معي في وصف ما رأيناه.. وكان نزار يؤمّن على كلامنا فقد رأى ما رأينا..

كان ذلك التجسد هو أقسى شيء حدث في حالة هذه الأسرة الحزينة حتى تلك اللحظة.. ولم يكن الأمر يختلف بالنسبة لنزار فقد قال هو الآخر أنه لم ير شيئًا مثل هذا من قبل..

قال نزار: حسنًا ما رأيناه اليوم هو يقين وليس ظنًا أو خيالًا.. وهذا معناه أن ما سنفعله اليوم سيكون تحضيرًا فقط..

فقالت راندا مستنكرة: تحضيرًا؟!

فقال: نعم.. أنا لا أستطيع مواجهة هذا الشيء وحدي لا بد من حضور (الشيخ سابق)..

قال رؤوف: ألهذا الحد؟! ومن هو الشيخ سابق؟!

قال نزار: الشيخ سابق هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفهم ما الذي نتعامل معه هنا.. وربما يكون هو الوحيد القادر على مواجهته.. فظني أنه أحد ملوك الجن وليس شيطانًا عاديًا..

رد رؤوف في جزع: ومتى يستطيع الشيخ سابق أن يأتي هنا.. لقد رأيت بنفسك ما نحن فيه؟ وأنا لن أبيت الليلة هنا.. الأولاد عند جدهم في الصعيد ونحن سنبيت الليلة في فندق حتى نرى ماذا سنفعل.

قال نزار: اهدأ يا سيد رؤوف.. سأكلمه وأتصل بك.. والآن سنبدأ التحضير ونترك المنزل لحين حضور الشيخ سابق..

ثم أمسك نزار طبق الماء وتجول في الشقة.. رش الماء على كل ركن وكل حائط.. ركز الرش على الصور المعلقة والتي كان بها قطط.. ركز الرش في الحمام وفي الأماكن التي حدث بها تجسد.. وفي الأماكن التي كثر فيها النشاط وظهرت فيها الرائحة.. أنهى الرش وعبأ ما بقي من الماء في زجاجات.

وقال لراندا: اغتسلي بهذا الماء واشربي منه.. واشربوا منه جميعًا..

واستأذنهم في زجاجة من هذا الماء لنفسه.. ثم قام بفرد القماشة البيضاء وأتى بالقلم الأحمر ففتحه من الخلف وقام بصب بعض ماء الزعفران فيه وأغلقه ثم بدأ في كتابة هذه الجملة..

«باسم الله مسخر الجن والريح والطير والجبال والشمس والقمر.. من الملك سليمان نبي الله ملك الجن والريح.. إلى كل من دخل هذا البيت من الإنس والجن.. اخرجوا منه بسلام لا تمسوا أهل البيت بسوء.. ولا يمسكم منا سوء.. وإلا فاخرجوا منه ملعونين أينما ذهبتم تصحبكم لعنة لا فكاك منها إلا بالموت.. لعنة تقطع النسل وتمرض الصحيح.. تخرس الناطق وتصم آذان السامع.. وتحبس صاحب فعل الشر منكم حتى الموت».

كتب هذه الجملة بخط واضح كبير وعلقها في مدخل البيت أمام الباب.. ثم غادر.



(٢)

في اليوم التالي مررت على رؤوف الذي كان قد أمضى ليلته هو وراندا في فندق وذهبنا إلى نزار في النادي الذي يعمل به مدربًا.. رحب بنا ثم أخذنا إلى ركن هادئ وطلب لنا قهوة ثم جلس يتكلم معنا في مواضيع شتى.. كان واضحًا عليه أنه يتجنب الكلام عما حدث في الليلة الماضية.. ظننا أنه لا يريد الكلام فيه في مكان عمله حتى لا يشتهر الأمر أو يظن زملاؤه أنه يناقش أمورًا شخصية في مكان العمل.. ولكن اتضح لنا أنه لا يريد أن يحرج «رؤوف» بالكلام في هذا الأمر في مكان مفتوح.. انتهى وقت عمله فخرجنا معًا وركبنا السيارة.. وفي الطريق قررت أن أفتح الحوار الذي يتجنبه الجميع..

- ما أخبار الشيخ سابق يا سيد نزار؟

- لقد حدثته أمس وأخذت منه موعدًا وسنذهب له لنقص عليه الحكاية ونطلب منه المعونة..

- هل هو مشغول إلى هذا الحد؟

- نعم يا سيد مازن فالكثيرون يطلبونه من أجل أن يساعدهم في التخلص من هذه الكيانات التي تهاجمهم.

فقال رؤوف: هل هو متخصص في هذه الأشياء أو ما شابه؟

- نعم.. إن الشيخ سابق أمضى حياته كلها في دراسة تلك الأمور.. هو ذو شفافية عالية جدًا.. حتى إنه يرى بعض تلك الأشياء من دون أن تتجسد.. وصقل موهبته وشفافيته وقدراته بالتدريب.. فهو من القلائل الذين يمارسون الإسقاط النجمي..

قال رؤوف: ماذا؟

- الإسقاط النجمي.. هو باختصار القدرة عن الانفصال عن الجسد والتحرك بالجسم الأثيري..

فقال رؤوف: أهو مشعوذ أم دجال؟

فقال نزار مستنكرًا: لا هذا ولا ذاك.. ولكنه أيضًا ليس فقيهًا دينيًا.. إنه شخص ذو قدرات خاصة ولكن كل قدراته هذه لم تجعله في مكانته التي هو فيها اليوم حتى ليلة حادثة المحطة منذ ثلاث سنوات.. أصبح من ليلتها الأستاذ سابق من نعرفه اليوم باسم الشيخ سابق..

فقلت أنا: لماذا؟ ما الذي غير الأمور في تلك الليلة؟

فقال نزار: سأحكي لكما..

كان الأستاذ سابق يقطن قرية صغيرة تطل على بحيرة.. ولم تكن المرافق والخدمات تصل إلى هذه القرية بشكل كامل شأنها شأن قرى كثيرة.. فالكهرباء لم تصل إلا إلى بعض البيوت كبيت العمدة ومركز الشرطة وبعض بيوت الكبار.. وبالتالي بعض البيوت المجاورة.. وكان منها بيت الأستاذ سابق.. كذلك المياه لم تصل إلى معظم بيوت القرية.. ولا توجد مواصلات عامة منها أو إليها إلا القطار.. وبعض الدراجات البخارية التي تستخدم بشكل غير رسمي للتوصيل بين الأهالي..

كان الوقت متأخرًا في تلك الليلة شديدة البرد والمطر منذ ثلاث سنوات أو أكثر قليلًا.. كان الأستاذ سابق عائدًا من عمله في المدينة.. وكان يركب القطار الأخير الذي يصل القرية في هذه الليلة.. وربما لم يكن به راكب إلى تلك القرية سوى سابق ولم يكن أحد بالمحطة ليركب القطار منها حيث انقطعت السبل من وإلى المحطة بسبب المطر الغزير الذي حوّل القرية إلى بركة من الماء.. ولا ضوء في الطرقات إلا ضوء البرق الذي لا يتوقف.. وأصم صوت الرعد الآذان.. فاختفى الناس في بيوتهم خشية الهلاك حتى تنتهي تلك العاصفة.

نزل سابق من القطار إلى المحطة التي لم تكن سوى رصيف صغير لا يتعدى العشرة أمتار.. وما إن غاب القطار حتى غاب الضوء الأخير عن المنطقة إلا ما أضاءها من البرق.. أخذ سابق يخطط للذهاب إلى بيته تحت جنح الظلام وصوت الرعد.. ويتناول بعض الأحجار المكسورة لعله يصنع لنفسه بها طريقًا يعفيه من الغوص بقدمه في المياه..

وبينما كان يتحسس طريقه في الظلام ويمد قدمه ليتأكد من صلابة الأرض تحتها ليمد قدمه الأخرى.. إذا بالبرق يضرب ضربة قوية.. كي يتجمد الدم في عروق سابق حين فوجئ بطرف ثوب امرأة أمام قدمه مباشرة.. فرفع نظره فجأة إليها وهو يقول: بسم اللّه الرحمن الرحيم.. ما هذا؟

فإذا بها امرأة عجوز طاعنة في السن منحنية الظهر نحيلة الجسد يبدو عليها الإعياء والبرد.. ملابسها خفيفة لا تكاد تقيها العاصفة ولا المطر تحمل طفلًا رضيعًا يبكي من الجوع والبرد..

فلما تبين لسابق حالها قال لها: السلام عليكم.. ماذا أتى بك هنا يا سيدتي في هذا الجو القارس.. والظلام الحالك؟

قالت: وعليكم السلام.. يا بني أنا هنا في انتظار القطار.. لكن يبدو أنه لم يأت بعد..

– بل أتى وذهب.. لقد كنت فيه وقد رحل منذ ربع ساعة تقريبًا.

– كيف ذلك؟ يبدو أني تأخرت بسبب المطر وانقطاع الطريق.. حسنًا ليس أمامي إلا انتظار القطار التالي.. واللّه يتولى حفيدي هذا.. فهو لم يطعم الرضاعة منذ الصباح.. وكنت أريد أن أعود به إلى أمه لترضعه..

– يا سيدتي ليس هناك قطار تالٍ.. لن يعود القطار حتى الصباح.. بقي أكثر من نصف يوم حتى يعود.. ولو بقيت هنا ستتجمدين أنت وحفيدك من البرد.. وستموتان جوعًا.. ولكن تعالي معي تبيتين

ليلتك.. وزوجتي يمكنها إرضاع صغيرك.. فعندنا رضيع ابن ثمانية أشهر.. وتنامين دافئة حتى الصباح وفي الصباح سأوصلك بنفسي إلى القطار.

- شكرًا يا ولدي بارك اللّه فيك..

- لا شكر على واجب.. ما زالت الدنيا بخير..

ذهبا إلى البيت.. وقامت زوجته بإرضاع الطفل.. وإعداد الطعام للسيدة العجوز.. وجلس معها سابق يطعمها بنفسه.. وأتى لها بغطاء ثقيل.. وجهز لها فراشًا دافئًا.. وناموا حتى الصباح.. في الصباح أيقظها وأتى لها بالفطور وأرضعت زوجته الطفل رضعة تكفيه حتى يعود إلى أمه.. وأوصلها سابق إلى القطار.. وودعها.. فقالت له: سأراك لاحقًا..

مر أسبوع قبل أن يطرق طارق باب بيت الأستاذ سابق يوم الجمعة بعد العصر بنحو ساعتين.. ففتح الباب فإذا به يجد نفس السيدة أمامه..

فقالت له: ألم أقل سأراك لاحقًا؟

- مرحبًا.. أهلًا بك يا سيدتي.. إنها لزيارة سعيدة.. تفضلي لقد أُعد الطعام وستكونين ضيفتنا اليوم..

- بل أبلغ سيدة الدار تحياتي وسلامي وتعال معي.

فقال متعجبًا: إلى أين؟

- تعال وستعرف..

فذهب معها.. وطال بهما السير.. قطعا مسافة طويلة حتى تجاوزا حدود العمار في القرية ووصلا محطة القطار فظن أنها تريد الركوب ولا تملك النقود.. فتحسس جيبه ليتأكد أنه يملك النقود..

فقالت له: لن نركب القطار..

فتعجب منها: إلى أين إذن؟

قالت: ستعرف..

استمرا في المشي مدة حتى دخل وقت العشاء وقد تجاوزا القرية ومشيا بمحاذاة البحيرة.. حتى وقفا عند أطراف البحيرة بعد العشاء بقليل.. وأخذت المرأة تنظر في صفحة الماء التي أصبحت تحت أقدامهما.. في مكان منقطع لا صوت فيه إلا صوت الريح الباردة ولا ضوء فيه إلا ضوء القمر..

وقالت له: أتعرف المكان الذي أسكن فيه؟

فقال سابق: لا.

فقالت: هنا.. وأشارت إلى البحيرة!

فنظر سابق بتلقائية إلى الماء الذي يرمي القمر بضوئه عليه.. لترتعد فرائصه هلعًا حينما رأى وجهه في المياه ولم يرَ بجواره أي انعكاس للمرأة.. أخذ ينظر في فزع إليها.. ويعود لينظر في الماء..

فلا يجد لها ظلًا في الماء.. فتراجع للخلف بسرعة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

فقالت له: لا تخف.. أنا من الجن السفلي.. ولكني لست كما تظن.. أنت لم يكن يفترض بك أن تراني تلك الليلة منذ أسبوع.. لكن يبدو أنك مختلف.. ولقد أحسنت إليّ وإلى حفيدي.. وأنا سأكافئك مكافأة كبيرة لم تكن لتحلم بها.. سأجعلك شيخًا يقصده الناس من كل مكان..

وبالفعل لقد أصبح سابق من يومها الشيخ سابق..

فقال رؤوف: كيف؟

قال: لقد أصبح مخاويًا لتلك الجنية.. يأتيه الناس يستفتونه.. فتوشوشه في أذنه بما فيهم من علة.. من كان ممسوسًا.. أو من كان يعاني من السحر.. وتعينه على الجن.. فيضرب هو الممسوس بكرباجه أو عصاه وتعذب هي الجن وتعاقبهم وتهددهم وتخرجهم من الأجساد.. بسلطانها وخدامها من الجن السفلي.. فهي من الملوك الغواصين.

قلت: إذن هو ساحر كما قلنا..

قال: لا هو لا يسحر أبدًا.. إنما هو يساعد الناس ويصنع المعروف.

قلت له: وهل الاستعانة بالجن حلال حتى ولو لفعل الخير؟

قال: أظن أنه لا.. ليس حلالًا.. ولكن إن لم يكن أمامنا إلا باب

الشيخ سابق نطرقه فعلينا ذلك ولا علينا مما يأخذه من أسباب ما دمنا لا نرتكب خطأ ولا نطيعه في معصية.. وإن كان هناك إثم فهو من يرتكبه ولسنا نحن.. هذا هو رأيي والله أعلم.. والأمر يعود إليكما..

قال رؤوف: الأمر لله.. إن كان الحل عنده فسنذهب له..

✿✿✿

ذهبنا في الموعد المحدد إلى الشيخ سابق.. طرقنا الباب.. ففتح لنا الشيخ سابق بنفسه.. رجل أبيض طويل القامة بشكل ملفت للنظر.. مع ضخامة في الجسم.. وعضلات بارزة واضحة.. يبدو أصغر من سنه الذي عرفناه من نزار.. لقد كان في نهاية الأربعينيات.. بينما يبدو عليه أنه لم يتجاوز الخامسة والثلاثين على أقصى تقدير.. أخبرنا نزار أيضًا أنه كان يلعب المصارعة ورفع الأثقال لوقت قريب.. شعره أسود كثيف.. كث الشارب.. حليق اللحية.. هادئ الصوت.. توحي هيئته بالثقة.. وإن كان في وجهه شيء من الغموض.. ربما كان ذلك بسبب أنها المقابلة الأولى..

أدخلنا سابق إلى بيته مرحبًا.. جلسنا إلى طاولة مستديرة يتوسطها شمعدان.. كأننا مقبلون على جلسة لإجراء طقوس.. أو ربما هذه الأفكار كانت تجول في رأسي بسبب ما سمعته من قصته وتاريخه.. فقد كان الغموض والإثارة حول هذا الرجل يثيران تفكيري بشدة.. وتراودني أفكار مع كل حركة والتفاتة منه.. فلعل جنيته هي

من تجعله شابًا هكذا.. أو لعلها هي من ستقدم لنا الشاي.. أو لعل هذه الوحمة على كف يده من أثر مصافحتها له.. أو لعل هذه الرائحة النفاذة في البيت هي رائحتها..

وضع الشاي أمامنا في ثوانٍ.. كما لو كان لا يملك الوقت ليضيعه في مناقشات ودية.. أو يريد أن يقطع عليّ أفكاري وأوهامي.. فشعرنا أننا يجب أن ندخل في الموضوع فورًا..

بدأ نزار الكلام: لقد أتينا اليوم بخصوص الأستاذ رؤوف.. لقد شهد بيته أحداثًا خارقة.. وهجوم متكرر من كيان شيطاني.. وأنا ذهبت عندهم أمس ورأيناه جميعًا.

فقال: رأيتموه؟ هل يتجسد؟

قال نزار: نعم إنه يتجسد كثيرًا.. إنه كيان عنيف جدًا.. كما أنه جريء في المواجهة والظهور.. متلاعب للغاية.. اتخذ أكثر من خمسة أشكال.. ما بين قط وكلب ورجل مسن وأخيرًا أمس.. ظهر أمس بشكل مختلف.. كان نصف ثور أو حصان وجسد إنسان.. بينما الرأس كان مختلفًا.. كان رأسه بشعًا كالرؤوس التي وردت في كتاب «العزيف»..

انتبه الشيخ سابق واتسعت عيناه وقال متوجهًا برأسه ناحية نزار: هل أنت متأكد أنه ورد في كتاب العزيف أم أنك تخمن؟

قال نزار: لست متأكدًا تمامًا.. ولكن أظن ذلك..

قلت لهم: ما هو العزيف وما الفرق بين وروده فيه أو عدم وروده؟

نظر إليّ الشيخ سابق وهز رأسه صامتًا ثم قال: سأقول لك.. العزيف هو سفر شيطاني لعين يمكن أن يكون هو أخطر الأسفار التي عرفتها البشرية يومًا.. كتبه رجل متهم بالجنون اسمه عبد اللّه الحظرد.. رجل عربي عاش في عهد الأمويين رسم الحظرد في هذا السفر صور الجن الحقيقية كما رآهم..

- رآهم؟

- نعم.. تحكي القصص عن حياته أنه عاش عشر سنوات في صحراء الربع الخالي في جزيرة العرب ويقال أنه قابل شياطين إرم.. مدينة إرم ذات العماد التي ذكرت في القرآن.. وهم من أعانوه على الرسم.. وعلموه شفرات الاتصال بالجن.. وطلاسم استحضار الأرواح..

وقيل إنه ذهب إلى أرض العراق.. وسكن أطلال بابل.. وقابل شياطينها.. وتلقى السحر البابلي منهم ومن صابئة العراق الأراميين..

قلت له: السحر البابلي؟ وهل هناك جنسيات للسحر؟

قال: إن أرض بابل هي مهد السحر في العالم.. وصابئة العراق هم من تلقوا السحر من هاروت وماروت.. ولم يكن في الدنيا أخطر ولا أدق من السحرة الصابئة..

قلت: لم أسمع عنهم مطلقًا.

قال: لن تسمع عنهم إلا إذا كنت مهتمًا بدراسة الأمر.. ستجد ذكرهم قد ورد مثلًا في الكتاب المقدس.. عند ذكر ولادة المسيح.. فذكر أن ثلاثة سحرة من أرض بابل رأوا النجم.. نجم المسيح.. فتبعوه إلى أرض فلسطين للبحث عنه.. وأنقذوه من الملك الشرير.. وقدموا له ولأمه الهدايا.. وصور الملوك الثلاثة موجودة في الأديرة اليوم.. وفي ألمانيا كنيسة جُمعت فيها رفات السحرة الثلاثة في صندوق من ذهب.. ويوم الغطاس يسمى عيد سجود المجوس.. أو يوم الملوك الثلاثة.. إنهم هم الثلاثة من أرض بابل.

قلت: إذن فسحر بابل هذا ليس سيئًا.. ويُعتبر مقبولًا في المسيحية؟

قال: لا أبدًا.. بل تم حظر كتاب العزيف في الغرب وأُحرق بأمر البابا.. وعوقب أكثر من ألف قس وراهب كانوا يملكون هذا الكتاب واتُهموا بالهرطقة..

قلت: أهو خطير إلى هذا الحد؟

قال: لو كنت شجاعًا فقط يمكنك الاطلاع على صفحات ذلك السفر اللعين.. إنها صور أقدم كيانات شيطانية عاشت على الأرض.. إنها مسوخ حقيقية لا تتمنى أن تراها في الواقع.. إنهم ملوك الجن.. ومع صورهم طلاسم تحضير الأرواح.. واستنطاق جثث الموتى.. إنه لعنة سوداء بين جلدتي كتاب.. حرق المسلمون كل نسخ الكتاب.. بعدما مات مؤلفه أمام أعين الناس بواسطة كيان شيطاني غريب ومفزع ظهر له والتهمه أمام الناس.. ولم يبق من العزيف إلا النسخ المترجمة

قبل الحرق إلى اللاتينية.. وتم ترجمته إلى الإنجليزية منذ قرابة مئة وعشرين عامًا..

و له عدة أسماء غير العزيف فاسمه سفر (قوانين الموتى) أو سفر (أسماء الموتى) أو (نيكرونوميكون) ولكن الاسم العربي القديم لا يزال علمًا عليه..

ثم نظر سابق إلى نزار ورؤوف قائلًا: لو كان ما عندكم هو أحد تلك الكيانات.. فنحن هنا في مأزق حقيقي ولا يسعنا إلا الاستعانة بالله.. فهذه الكيانات الفاجرة الكافرة لم يسيطر عليها إلا نبي الله سليمان.. كان عليه السلام يسومهم سوء العذاب كلما خرجوا عن طاعته.. كان يذلهم ويحبس منهم من يعصيه.. وبعد موته لم يجدوا من يكسر شوكتهم.. فعادوا إلى غرورهم القديم وكفرهم كما فعلوا قبل خلق آدم.. فهم من استوطنوا الأرض قبل آدم وفقًا لكتاب العزيف..

۞۞۞

حبست كلمات الشيخ سابق أنفاسنا فلم يتفوه أحدنا بكلمة.. تبادلنا النظرات المتحسرة أو الحائرة.. ولم ننطق..

قال الشيخ سابق: فيم هذا الصمت؟

قال رؤوف: وهل بعد ما قلته يمكن لأي شيء أن يقال؟!

قال سابق: لا يا سيد رؤوف.. لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام.. نحن ما زلنا غير متأكدين بعد من حقيقة ما نتعامل معه.. وأيًا ما كانت حقيقته قبيحة فالخبر الجيد هو أن هؤلاء في النهاية هم خلق الله لا يخرجون من سلطانه.. مخاطبون بالقرآن.. فالنبي محمد قد أرسل إلى الثقلين.. وهم مدعوون إلى الإسلام مثلنا.. كما أنهم يدخلون في عموم قول الله ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾.. أو قوله ﴿**إن كيد الشيطان كان ضعيفًا**﴾..

إن من ذكروا في كتاب العزيف ليسوا بأقوى ولا أخطر من إبليس.. ولن يسلطهم الله على بشر.. ولن يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. فاطمئن واجعل ثقتك بالله أقوى من أي شيء وكل شيء..

أعادنا كلام الشيخ سابق مرة أخرى لنتنفس الصعداء.. زادنا ذلك الكلام ثقةً فيه.. وشعرنا بأنه ليس ذلك الساحر الذي توقعناه.. كما زاد حرصنا على التحصن بالقرآن والأذكار من ذلك الكيان الذي يبدو أنه أسوأ مما اعتقدنا..

قال الشيخ سابق: حسنًا يجب علينا أن نتحرى الدقة الآن.. ونأتي بكل الأدوات اللازمة معنا حتى لا نضطر لترك المنزل والعودة إليه.. كل الأدوات سأجهزها أنا وأحضرها معي..

ثم نظر إلى رؤوف متسائلًا: هل بجوار البيت مسجد؟

فرد رؤوف: نعم.. بل مساجد وقريبة جدًا..

قال: فهل تصل أصواتها إلى البيت بقوة؟

فقال: نعم..

فرد سابق: إذن توكلنا على اللّه.. ولكن على من يأتي أن يتحلى بالشجاعة.. لا مجال لمن ترتعد فرائصه من الخوف ولا مجال لوجود أطفال.. كلكم يأتي على وضوء.. ومعه مصحفه.. وسأحضر الساعة الثانية والنصف صباحًا.. وأتمنى أن نستطيع استدراجه نحو الفجر..

قال رؤوف: الفجر؟

قال سابق: نعم.. أذان الفجر قد يكون هو المطرقة الأخيرة لو عجزنا عن السيطرة على الوضع..

قال نزار: توكلنا على اللّه.



(٣)

في الساعة الثانية والنصف صباحًا كنا جميعًا في الانتظار في البيت.. حضرت أنا ونزار ورؤوف وراندا والحاج طاهر والد راندا الذي جاء من الصعيد لحضور هذه الليلة.. كنا في ترقب وقلق مما حدث في المرة الماضية والذي لم يفارق ذاكرة أي واحد منا.. فأتى كل منا بمصحفه وجلسنا نقرأ قرآنًا في انتظار حضور الشيخ سابق..

دق جرس الباب ودخل الشيخ سابق ومعه حقيبة متوسطة الحجم.. سلم علينا وجلس.. نظرت إلى حقيبته متخيلًا ما بداخلها.. حدّثت نفسي أنه إذا فتحها سيخرج جماجم موتى وقنينة من الدماء وشموعًا وأحجبة وتعاويذ وطلاسم.. وعرائس قماش.. و.....

قطع هذه الأوهام صوت الشيخ سابق وهو يقول: بسم الله وفتح حقيبته متسائلًا: هل كل شيء على ما يرام؟ هل حدث شيء منذ حضرتم؟

قلنا له وأنظارنا جميعًا على الحقيبة: لا.

وأخيرًا انفتحت الحقيبة.. كانت بالنسبة لي كنزًا أريد استكشافه.. فإذا به يخرج منها كرباج جلد بمقبض عاجي يبدو عليه أنه مصنوع صناعة خاصة وجيدة وعلى المقبض بعض النقوش التي لا أعرفها ولا أعرف لها معنى.. وأخرج كيسًا من العظام.. عظام البقر كالتي تأتي مع اللحم من عند الجزار..

ما هذا؟ هل هذه محتويات حقيبة الرعب التي كنت أتخيلها منذ لحظة؟! أهذا كل شيء؟

ولكن الحقيبة ما زالت تبدو ممتلئة.. حسنًا لعل الجماجم والطلاسم وزجاجات الدم موجودة بالداخل.. لن أفقد الأمل..

توجه الشيخ سابق للسيدة راندا قائلًا: هل أنت مستعدة لمواجهة ليلة طويلة يا سيدتي؟

قالت بحماسة: نعم..

كانت عيناي تنظران رغمًا عني بفضول في محاولة يائسة لاستكشاف ما لم يخرج من الحقيبة عندما قال الشيخ سابق: أريد ثلاثة من الحضور يأخذ كل منهم مصحفًا.. ويفتح الأول سورة البقرة والثاني سورة الصافات.. والثالث سورة الدخان.. والرابع يكون جاهزًا ليؤذن الأذان كاملًا.. وأن تنتظروا مني كلمة ولتكن (الآن) فإذا سمعتموها يبدأ كل منكم في قراءة السورة التي يختص بها ورفع

الأذان في آن واحد وصوت عالٍ وقوي ومهما تداخلت الأصوات فلا تتوقفوا حتى أقول لكم كفى..

فتناول نزار مصحفًا وفتحه على سورة الصافات.. وأخذ الحاج طاهر مصحفًا وفتحه على سورة الدخان.. وتناول رؤوف مصحفًا وفتحه على سورة البقرة.. وقلت أنا أنني سأرفع الأذان..

قال: حسنًا افتحوا نوافذ المنزل.. وأغلقوا النوافذ القريبة التي تطل على جاركم في الطابق الثالث.. لا نريده أن يسمعنا..

فرد نزار: هل شعرت بشيء؟

قال سابق: بمجرد أن مررت ببابه انقبض صدري.. وقد أنزلت المقشة التي يعلقها أرضًا.. وألقيت النعلين المعلقين على الحائط في المنور.. فليضيع وقته في البحث عنهما إن شاء.

ثم قال: افتحوا أنوار الشقة كلها حتى إذا ما انطفأ النور في هذه الغرفة.. بقي لنا نور كافٍ يضيء لنا الغرفة فلا ننشغل بإشعال النور.. وأضيئوا تلك الشموع ووزعوها في البيت حتى إذا انقطع النور كله بقيت الشموع فإذا ما انطفأت فإن النوافذ والشرفة المفتوحة ستضيء لنا من نور الشارع القوي.. لن نسمح له أن يغرقنا في ظلام يتلاعب فيه بعقولنا وقلوبنا.. فلنبدأ بسم الله.

فتح الشيخ سابق كيس العظام المكسورة الذي أحضره وقام بنشرها على المنضدة الموضوعة أمامه..

ثم قال: هكذا نستطيع استثارته.

فقلت له: كيف؟

فقال: ألا تعلم أن رزقهم على العظام وعلف دوابهم على الروث.. الجن يتزاحمون على أي عظم أو روث لأن طعامهم ورزقهم عليه.. إنهم يتغذون على الدماء والأبخرة.. كذلك هناك أنواع من البخور يحبونها تستخدم في جذبهم وتحضيرهم كالينسون والكندر الذي سنستخدمه الآن..

ثم أخرج قطعة رخام من الحقيبة المثيرة للفضول ووضع فوقها ثلاث قطع من الفحم سريع الاشتعال وزجاجة صغيرة كزجاجة قطرات العين بها مادة قابلة للاشتعال وصب نقطتين على الفحم ثم أشعله.. فأمسكت فيه النار حتى التهب وأصبح جاهزًا..

أخرج قليلًا من البخور ثم وضعه على الفحم.. فثارت رائحة البخور ودخانه ومعه رائحة ينسون واضحة.. فتحنا النوافذ.. وأوقدنا الشموع.. ثم جلسنا في صمت تام نراقب الشيخ سابق وقد بدأ يتمتم بكلمات لا نسمعها ولا نسمع إلا همهمته أثناء إلقائها.. وقد أغمض عينيه.. ثم بدأ يهز رأسه هزًا خفيفًا.. وبدا كأنه يتكلم مع أحد ويسمع منه ويرد بحركات وأصوات من فمه المغلق أحيانًا والمتحرك أحيانًا أخرى..

ثم سكن فجأة.. كأنما أسكته شيء.

فانتبهنا..

فتوجه برأسه وعينيه المغمضتين ناحية اليمين قليلًا إلى الناحية المطلة على الحمام.. وكأنه يرى من خلف عينيه المغمضتين ثم قال:

ها قد بدأنا..

۞۞۞

لم نكن نفهم شيئًا أو نسمع شيئًا حتى هذه اللحظة.. حين بدأنا نشم رائحة حريق..

بدا أن «سابق» كان محقًا.. وأننا على وشك هجوم محتمل..

بدأت رائحة نشادر تظهر وتطغى على رائحة الينسون.. بل تطغى على رائحة الحريق.. بدأ سابق الذي كانت عيناه لا تزالان مغمضتين في رفع صوته بالهمهمة.. وبدأنا نشعر بنوع من الحركة والأصوات غير المحددة.. حين انطفأت جميع الشموع فجأة.. ففوجئنا بالشيخ سابق يفتح عينيه بشدة كأنه في حالة فزع.. بدت عيناه غريبتين قاسيتين متسعتي الحدقة.. كان يبدو كأنه سيبطش بأحد ما حين قال بصوت كالرعد: يااا عثمااان... يااا عمررر... أمسكا ذلك الملعون..

لم نكد نفكر فيما يحدث حتى رأينا العظام التي كانت على المنضدة تتحرك وترتج بشدة.. ثم فجأة طارت عظمتان منهما في الهواء كأنهما أُلقيتا بعنف.. أصابت إحداهما مباشرة زجاج باب الحمام فتحطم

وأصابت الأخرى المصباح الذي يضيء الغرفة فأظلم.. وظل الضوء يأتينا من بقية غرف البيت..

فقال سابق الذي ثبت رأسه تجاه الحمام في زئير قوي: ما اسمك يا ملعون؟ اسمك وإلا أحرقتك.. تعلم أني أستطيع.. تعلم أني أملك العهد.. ولدي سلطان الملوك.

سكتت الأصوات كلها فجأة.. ثواني معدودة.. ثم فجأة ارتجفت المنضدة أمامنا ثم ارتجفت محتويات الغرفة كلها ثم انطلقت من داخل الحمام دوامة كأنها إعصار يتحرك على شكل عمود طويل من الأرض للسقف.. أخذت تدور بعنف في طرف الغرفة ناحية الحمام.. تظهر منها معالم وجه غير محدد ثم تحركت ناحية الصالة في الخارج وبدأت تكبر ويتعاظم قطرها..

دارت تلك الدوامة على كل محتويات الصالة في ثوانٍ قليلة فجعلتها كلها على الأرض في فوضى لا تصدق.. فتناول الشيخ سابق كرباجه الغريب وقام إلى الصالة..

قمنا وراءه..

وقف سابق أمام الدوامة وأشار بيده اليسرى عليها كأنه يتحكم فيها فوقفت أمامه تدور في مكانها..

ثم قال: ثبتووووه..

رفع كرباجه ثم قال في صوت يصم الآذان: يا خادم النار الملعون..

ثم نزل بالكرباج على تلك الدوامة فأصابها كأنها جسد من لحم ودم..

- ألم تحذرك الملكة الغواصة أني قادم؟

وضرب ضربة ثانية أشد من الأولى..

ثم رفع يده بالثالثة وقال: ألعنك بلعنة الملك سليمان.. لأقيمك بها في العذاب المهين..

وضربه الثالثة فانطلقت شرارة قوية..

ثم تلا بصوت مرتفع ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

عندها هاجت الدوامة بقوة وأسرعت وكبرت وتعاظمت ودارت دورتين في مكانها في دائرة قطرها حوالي متر ثم ارتفعت كلها إلى السقف وهبطت في لمح البصر بقوة على الأرض..

ولكن ما هبط من السقف لم يكن دوامة مرة أخرى..

بل هبط من السقف كيانًا متجسدًا مفزعًا كأنما قُذف علينا من الجحيم..

۞۞۞

كان الكيان الذي هبط من سقف الغرفة مهيبًا إلى حد كادت قلوبنا تتوقف منه رعبًا.. كان ماردًا عظيمًا كأنما أتى من أساطير الأولين.. كان مسخًا مشوهًا يشبه العقرب.. لكنه ليس عقربًا.. فله ذراعان يقف عليهما كذراعي تنين.. لكنهما طويلتان جدًا.. تنتهيان بأربعة أصابع.. وكانت له ثلاثة رؤوس.. كل رأس به قرون مدببة.. رؤوس كأنها من الصخور لا لحم فيها.. يتدلى من ذقنه شيء طويل كأنه لحية ولكنها في شكلها تشبه أرجل الطيور.. وجسده كجسد العقرب يتمدد إلى الخلف من دون أقدام يقف عليها.. لينتهي بذنب كذنب العقرب ملتوٍ ويتحرك فوق رأسه ذهابًا وإيابًا كأنه يهاجم به خصمه..

هبط من السقف ووقف أمام سابق.. ثم صرخ صرخة قوية تشبه زئير الأسد.. كأنه يهدد «سابق» بالفتك به.. صرخة طويلة أصمت آذاننا وحطمت كل قطعة زجاج في هذا المنزل.. كان الزجاج يتطاير علينا وحولنا ولا نستطيع أن نتقيه..

وقف سابق ثابتًا في مكانه متحديًا ورافعًا صوته بقوة: سيف اليمين يا عمررر..

فشعرنا بشيء يضرب ذلك المارد من جانبه وهو يتزحزح من الضربة ويصرخ..

ثم بصوت الرعد قال سابق: سيف اليسار يا عثماااان..

فرأينا المارد يصرخ بشدة وأخذ يتلوى كأنما يقاوم هذين الشخصين اللذين لا نراهما.

فقال سابق بعنف وقسوة: الآاااان..

استغرقنا ثواني حتى استوعبنا أن الأمر كان موجهًا لنا نحن هذه المرة كي نبدأ في القراءة المتفق عليها.. فبدأتُ أنا بصوت ضعيف ثم تشجعت فرفعت الأذان وما إن قلت «اللّه أكبر اللّه أكبر» حتى نسي ذلك المارد ما يقاسيه ونظر إليّ بوجوهه الثلاثة وعيونه الست.. وهو يزأر كأنما يتوعدني بنظرة كدت أسقط منها مغشيًا عليّ..

عندها بدأ صوت نزار يرتفع وهو يقرأ سورة الصافات كما ظهر صوت الحاج طاهر الذي كان صوته جهوريًا بسورة الدخان.. ووصل صوت رؤوف بسورة البقرة.. فأثار ذلك غضب المارد فنظر إلى أعلى وهو يزأر بشدة.. فعلها مرتين ثم نظر إلينا وقد اتسعت عيونه وانتفخ وجهه.. ثم بدا كأنه يأخذ نفسًا عميقًا ثم ضرب بيديه بشدة على الأرض فعاد إلى شكل الدوامة وأخذ يدور بجنون في مكانه ثم انطلق خارجًا من النافذة..

✿✿✿

لم نملك إلا أن نتوقف عن القراءة لنلتقط أنفاسنا.. كما توقف سابق وهو يلهث قائلًا: لماذا توقفتم؟ أكملوا للنهاية..

فما كدنا نعود حتى سمعنا صوت راندا تضحك ضحكة عالية وهي تنظر إلى سابق.. الذي جاء مسرعًا.. فنطقت راندا بصوت أجش

متعدد النبرات كأن رؤوس المارد الثلاثة تتكلم معًا: هل تظن أنك انتهيت مني؟ سأحرقها وأحرق عائلتها وأحرق البيت عليكم.

ثم دفعت «رؤوف» الذي كان قد أمسك ذراعها متحيرًا دفعة قوية فسقط على المقعد بجانبها.. في اللحظة التي وصل فيها سابق إليها فحاولت أن تمسك رأسه بكلتا يديها.. فأمسك هو يديها بيديه وأخذ يقاومها حتى مد ذراعيها بجانبها واقترب وجهه من وجهها ثم قام بليّ ذراعيها خلف ظهرها وقال: وأنا هنا لأنهي حياتك اللعينة البائسة.. أما عرفت أني سلطان الكلمة.. سأرسلك إلى الجحيم..

ثم نادى بصوت عالٍ: يا عمررر.. يا أبا بكر.. يا عثماااان.. يا علي.. سلطوا سيوف اللعنة على رؤوس الشيطان وذنبه..

صرخت راندا بذلك الصوت الذي لا أنساه أبدًا.. ثم خرج من فمها سائل رغوي غريب..

فقال سابق بعنف: أخبرني اسمك وإلا أذقتك عذاب الحريق.

رد المارد على لسان راندا: لا شأن لك باسمي.. هؤلاء ملكي فاتركهم لي..

فرد سابق: لا تراوغ أيها الملعون وأخبرني اسمك.. حسنًا لا تريد أن تنطق.. أنت الجاني على نفسك..

ثم نظر سابق إلى أعلى ونادى: يا ملكة البحيرة الغواصة.. يا ملكة قبيلة الـ...

قاطعه الصوت الملعون قائلًا: لا لا.. سأتكلم.. سأتكلم.. اسمي نرجال.

فقال سابق: هل لك ديانة؟

- لا.

- إذن يا نرجال.. أسلم واشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه.

- لا.

- بل أسلم وأتركك.

- لا.

- لآخر مرة.. أسلم للّه خالقك وسترحل في سلام.

- لا.

- إذن اُعذرنا فيك.. كافر محارب معتدٍ.. أيها الشيطان نرجال باسم اللّه اخرج منها وإلا أحرقتك.

- لا.. لا.. لا.

فصرخ سابق: الآاان.

فبدأنا في تلاوة القرآن والأذان..

فقاطعنا الصوت: حسنًا سأخرج ولكن اجعل خُدام الملكة يتركوني.

قال سابق: تعلم أنك لن تخدعني وسيأتون بك من تحت الأرض أو باطن البحر.

- أعدك بأني سأخرج.

- أنا لا آخذ وعدًا من أمثالك.. بل ستترك علامة.

- سأترك علامة في صدرها.

فهزه سابق هزة قوية وقال: يا ملعون ستخرج وتترك علامة في مكان لا يشوهها.. ستترك علامة في المكان الذي أحدده.

ثم دفع راندا على الكرسي.. فبدت كأنها ما زالت مقيدة.. ثم تناول من حقيبته بسرعة آلة حادة تشبه المسمار.. ثم أمسك بقدمها وضرب باطن إصبع قدمها الإبهام بالآلة ضربة قوية وقال: اخرج من هنا..

فصرخ الصوت الأجش صرخة عنيفة طويلة كادت تحطم الجدران.. وإذا بوجه راندا يتشنج ويتحول لونه إلى الأزرق.. كأنها تختنق.. وتشقق وجهها طولًا وعرضًا.. وأخذ جسدها يتشنج بشدة حتى ظننا أن ظهرها سينكسر..

أمسك بها رؤوف وسابق وقال لنا: الآاان..

فبدأنا القراءة والأذان بقوة وبغير توقف ووجهنا أصواتنا تجاه راندا التي كانت لا تزال تصرخ.. ففوجئنا بصوتها يتقطع كأنها ستتقيأ.. وعينها تفتح على اتساعها.. كأنها ترى منظرًا مفزعًا..

فضرب سابق إصبعها مرة أخرى بإبرته.. وقال: لا تقاوم أيها الملعون.. اخرج الآن..

فرد على لسانها: بل.. س.. أق.. تل.. ها..

قال هذه الكلمة بإصرار وتحدٍ وقوة.. وكانت راندا على وشك الموت فعلًا.. تختنق وتتشنج بعنف.. فانفجر رؤوف بالبكاء وقال: يارب انقذها وانقذنا..

واختنق صوت الحاج طاهر والدها ونزل على رأس ابنته يقبلها ويبكي..

بينما خر نزار عليها ممسكًا بها بشدة كأنما يحاول أن ينتزعها بيأس من يد المارد..

نظرتُ إلى سابق الذي اغرورقت عيناه بالدموع وشعر بالعجز التام.. وظل يردد بعجز مرارًا: اللهم لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك..

و وقفت أنا باكيًا.. أردد بكل ما أوتيت من قوة ويدي على رأسها: أعوذ بالله العظيم ووجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم..

ردّدتها قرابة العشر مرات..

وبينما اليأس يسدل علينا ستره الثقيلة.. وارتفعت أصواتنا بالنحيب.. وأدركنا أننا فقدنا راندا إلى الأبد..

إذا بصوت أذان الفجر يخترق البيت الذي كان مفتوح النوافذ: (الله أكبر.. الله أكبر)..

(الله أكبر.. الله أكبر)..

كان الصوت يدخل من كل مكان.. ثلاثة مساجد حول البيت كأنما تزاحمت أصواتهم واحدًا تلو الآخر كما لو كانت مددًا يأتي إلينا تباعًا من السماء..

فاهتزت الأرض بشدة من تحت أقدامنا.. وإذا بسيل من دماء سوداء ثقيلة تنفجر من إصبعها الذي ضربه سابق.. وإذا بصوت قعقعة يزلزل البناية كلها.. ويشرخ الجدران.. وإذا بالدوامة ترتفع فوق راندا وتدور بجنون في سقف البيت ثم جاء صوت القعقعة مرة أخرى كأنما ستنفجر الجدران وما إن وصل إلى النافذة حتى سمعنا صوت انفجار وتحولت الدوامة إلى كرات عديدة من النار انطلقت للخارج واختفت في السماء..

نظرنا إلى راندا فوجدناها تفقد الوعي.. أو هكذا بدت لنا.. ويسترخي جسدها الذي كان قد اعتصرته التشنجات.. فهدأت أنفاسنا وبدأنا نخفض أصواتنا.. فلم نكن نعرف ما الذي يتوجب علينا فعله.. فقام سابق سريعًا بمسح الدم عن قدمها بقطعة قماش.. فوجدنا ثقبًا كبيرًا محفورًا في إصبعها كالفنجان..

فقال سابق وهو يتنفس الصعداء: حسنًا هذه هي العلامة..

كانت الساعة تدق السادسة صباحًا ونحن ما زلنا نحاول أن نلملم الفوضى التي خلفتها المعركة الضارية حتى الفجر.. عندما خرجت راندا إلينا بعد أن نامت نومًا طويلًا.. نصحها سابق بأن تذهب إلى البحر كل يوم فجرًا لمدة ثلاثة أيام.. فهذه ساعة يُسبح فيها البحر ويغتسل.. ويطرد كل ما به من مخلفات أو قاذورات على الشاطئ.. نصحها أن تذهب وتغطس كل يوم ٢١ مرة.. كما نصحنا سابق بأن نقرأ سورة البقرة وآل عمران أكثر من مرة في البيت.. وأن نخرج أي عظام تبقى من الطعام.. ولا نبيتها في بيوتنا.. أخرج من حقيبته زجاجة مسك ودهن لكل منا على يده قليلًا وقال عطروا بها وجوهكم وأيديكم.. فهذا المسك طاهر وتهرب من رائحته الشياطين.. واطمأن على الجميع.. وطلب منهم أن يتصلوا به بعد أيام ليطمئن على الكدمات الزرقاء هل اختفت أم لا.. وودعنا جميعًا ثم رحل..

نزلت معه لأوصله وأحاول أن أسأله على أجر ما فعل في تلك الليلة.. فقال إنه لا يأخذ أجرًا والمهم أن يدعو له الناس بظهر الغيب عندما يشفيهم الله.. وأوصاني أن أكلمه كلما استطعت.. وعدت إلى بيت راندا سريعًا..

وعندما وصلت إلى الطابق الثاني سمعت صوت باب في الطابق الثالث يُغلق.. يبدو أن صاحبنا شعر بما حدث.. ولا بد أنه كان يسترق السمع.. فقررت أن أقف قليلًا أمام بابه.. وقفت وشعرت أنه يقف خلف الباب يراقبني.. فاقشعر جسدي من ذلك الإحساس.. ولكن إصراري على التحدي سرعان ما تبدد عندما اكتشفت أني أقف على

بقعة ماء على الأرض.. يبدو أن الرجل كان يمسح أمام باب بيته وليس هناك ما في رأسي من أوهام..

صعدت إلى البيت وأكملنا ترتيب المنزل حتى أعدناه إلى سيرته الأولى.. أعدت لنا راندا الإفطار.. وأعطى رؤوف لكل منا زجاجة ماء بزعفران.. مقروء عليها آيات من القرآن.. لنشرب منها ونغسل وجوهنا.. ثم جلس على مقعده كأنه يتنفس الصعداء.. كنت أشعر به ينظر إلينا في خجل مما حل بهم أمامنا.. وكانت راندا تشعر به.. فجاءت بقطعة قماش وصبت عليها من زجاجة ماء الزعفران وأخذت تمسح رأسه وتقبلها..

وقالت له: هون عليك.. لقد انتهى كل شيء.. كل شيء سيكون على ما يرام..

اطمأننت عليهم وسلمت على الجميع.. ورحلت..

❀❀❀

لبثت أيامًا بعدها لا تفارق تفكيري تلك الليلة.. ولا أستطيع أن أغفو ليلاً.. مرت فترة ليست بالقليلة لتهدأ في نفسي ذكرى ما حدث.. ويعود إليّ النوم.. ولكني لم أنسها.. مضت شهور طويلة على تلك الليلة البعيدة.. وما زلت أذكرها كأنما كانت بالأمس.. كنت يومها على

موعد لم أزل أذكره.. تحوم أشباحه في ذاكرتي كل يوم.. واليوم أدون ذكراه..

ولكني لم أكن وقتها أعرف ما ينتظرني.. فتلك الليلة لم تكن سوى البداية فقط.



(٤)

بعد عدة أسابيع من تلك الليلة الطويلة في بيت راندا كان يومي الأول في السنة النهائية بالجامعة.. كانت المدينة الجامعية هي الملجأ الطبيعي لأمثالي ممن يغترب عن مدينته من أجل الجامعة.. وكانت هذه هي المرة الأولى لي التي ألتحق فيها بالمدينة الجامعية لأعفي نفسي من السفر يوميًا فهذا عامي الأخير بالجامعة ولا يجب أن يكون هناك أية معوقات..

دخلت إلى شؤون الطلبة بالمدينة الجامعية.. كانت وجوه الموظفين بشوشة.. رجالًا ونساءً.. معاملة لطيفة.. بها الكثير من الاحترام كما كان بها الكثير من الرأفة بالمغتربين.. كنت متأخرًا في الدخول للمدينة بسبب طول الإجراءات.. حتى تقلص عدد الغرف في أبنيتها.. ولم يعد يتوفر غرف شاغرة بشكل كامل.. بل يتوفر أماكن مفردة شاغرة في بعض الغرف والتي كانت سعتها ثلاثة أفراد.. قابلت صديقين لي

أحدهما كريم وهو صديق قديم والآخر صديق حديث يدعى طارق تعرفنا عليه في الكلية.. كان زميلًا في نفس الدفعة.. جمعتنا الصدفة في الكلية ثم في التأخير على السكن في المدينة الجامعية فاتفقنا على أن نسكن ثلاثتنا معًا حتى لا يتفرق كل منا في غرفة مع أشخاص لا يعرفهم أو لا يستريح إليهم.

ذهبنا لمسؤول التسكين.. ففرقنا على غرف مختلفة.. فقلنا له ما نريد.

فقال: ليس لدينا غرف لتسكنوا فيها معًا.. لم يبق إلا أماكن متفرقة في غرف عديدة.. لا مجال لتسكنوا معًا..

حاولنا كثيرًا.. ولكن لا فائدة.. استسلمنا للأمر الواقع وقلنا قدر الله وما شاء فعل.. أخذنا نجر أقدامنا على الأرض ونحن نخرج وعلى كتف كل منا حمل من الهموم بسبب ما حدث.. حين نادانا صوت عالٍ: هناك غرفة واحدة فقط في المدينة الجامعية خالية تمامًا..

التفتنا بفرحة وأمل.. فإذا بالمدير والذي لم يكن تفوه بكلمة منذ دخلنا.. ذهبنا له فرحين.. قلت له: أين هي؟ سنأخذها..

قال: لا.. اذهبوا فألقوا عليها نظرة أولًا.. ولو وافقتم ستكتبون موافقة خطية منكم على سكناها.. عندها نسكنكم فيها..

فقال طارق: نحن موافقون بدون معاينة..

قال: لا يمكن.. يجب أن تعاينوها أولًا.

فقلت: حسنًا أين هي؟

قال: اصعدوا مبنى (د) واسألوا عن المشرف الأستاذ لطفي.. وأخبروه ما قلته لكم ليسمح لكم بمعاينتها..

فقلنا: حسنًا سنذهب ونأتي في لمح البصر..

خرجنا مسرعين نحو المبنى (د).. ونحن في منتصف الطريق إذا به ينادينا.

المدير: يا شباب نسيتم أن تأخذوا رقم الغرفة.. إنها الغرفة ٤٤٩

❀❀❀

كنا نتسابق في الوصول للأستاذ لطفي.. هذا المشرف المستقبلي.. دخلنا مكتبه.. فإذا به رجل أسمر ذو شارب كبير معقوف الجانبين لأسفل.. لحية نابتة مهملة.. شعر أشيب غير منظم.. ملابس متواضعة غير مهندمة بالمرة.. بالكاد نستطيع أن نناديه بـ«أستاذ لطفي» فهو يبدو سجانًا أكثر منه مشرفًا..

قلت له: عندك غرفة شاغرة ونريد ثلاثتنا أن نسكنها.

قال بدون حتى أن يرفع نظره إليّ: لا ليس عندي غرف.

فقلت له: بل يوجد.. إنها الغرفة ٤٤٩

فنظر إليّ بتعجب وقال: وما أدراك؟

- أخبرنا عنها المدير.

قال بضيق: حسنًا أين أوراق السكن؟

أثارت طريقته وإنكاره الريبة في نفسي ونفوس أصدقائي.. فتراجعنا خطوة للوراء..

- لا.. يجب أن نراها أولًا ثم نوافق أو نرفض.

فقال: نحن لسنا في فندق.. أنا ليس عندي غرف.

قلت له بنبرة تهديد خفية: حسنًا سأقول للمدير أنك امتنعت عن تنفيذ كلامه الذي أرسلنا به إليك وأنه ليس لديك غرف للأسف.. سلام عليكم.

فقال بضيق شديد جعل صوته يرتفع: انتظر.. سأريكم إياها..

ذهبنا إلى الغرفة وفتحها لنا.. لنرى ما لم نكن نتوقعه..

كانت الغرفة مهملة بشكل لم يسبق له مثيل.. سرر محطمة وبلا مراتب.. جدار نصفه زجاج.. كأنه كان شرفة وتم غلقها بالزجاج لصنع غرفة.. وباب زجاجي آخر يطل على شرفة خارجية.. وعلى الحائط وجدنا رسومًا غريبة.. صورة لجمجمة يخرج منها شعر كثيف.. صورة لثعبان يقف مهاجمًا لشخص.. كلمات غريبة مثل (شكْشكْشكْ) و(طهْطهْطهْ) ورسوم وجداول مملوءة بالأرقام..

وفي نهاية أحد الجدران وجدنا آية الكرسي مكتوبة بالطباشير على حائط يبدو مغطى بطبقة من الطلاء كأنها تستر شيئًا ما.. الباب غير منضبط وينخلع بسهولة والمصباح في السقف لا يستقر مضيئًا لفترة طويلة.. وليس هناك سوى نسخة واحدة للمفتاح..

وقفنا ننظر بعضنا إلى بعضٍ وكان لسان حالنا يقول ما هذه الخرابة.. ولكننا في النهاية لم يكن أمامنا سوى أن نقبل.. فالاحتمالات الأخرى مرفوضة تمامًا.. وافقنا بدون اقتناع.. وسكنّا الغرفة خلال عشر دقائق.. لتبدأ بنا رحلة لم نتوقع أن نعيش أحداثها قط..

❀❀❀

منذ أن دخلنا تلك الغرفة ونحن نشعر أن هناك شيئًا ما خاطئًا بخصوصها.. عندما سألنا عن القبلة في الغرفة عرفنا أنها في نفس الاتجاه الذي وجدنا عليه آية الكرسي على الجدار.. مما أثار الانتباه..

هل يكتب الناس على الحوائط في البيوت والمدن الجامعية والفنادق آية قرآنية في اتجاه القبلة؟

ليس هذا بالشيء المألوف لا في بيوت الناس ولا في المدن الجامعية.. ولكن لا بأس.. ليست هذه المشكلة.. المشكلة الحقيقية الآن في ذلك المصباح الذي لا يستقر أبدًا.. يجب أن نتصرف بشأنه..

قام طارق بوضع عود ثقاب ليُحكم به وضع المصباح فلا يهتز.. وهكذا حُلت المشكلة مؤقتًا..

رتبنا الحجرة وجهزنا فُرُشنا.. وجلس كل منا تحت غطائه في الفراش ثم أخذنا نتسامر قليلًا قبل النوم.. فتحنا أكثر من موضوع.. كان أبرزها وأحبها إليّ دائمًا وأبرزها في قراءاتي واطلاعي هو موضوع الجن والشياطين والسحر.. تكلمنا قليلًا.. نصف ساعة مرت علينا ونحن نتكلم حول هذا الموضوع.. بدأ مصباح الغرفة الرئيسي والذي كان قد تم إصلاحه منذ قليل ينطفئ ويضيء مرة أخرى.. كان من الممكن أن نعتبر الأمر فشلًا من طارق في إصلاح المصباح.. ولكن نظرًا لأننا كنا للتو نتكلم عن الجن والألاعيب الشيطانية.. فقد تسلل التوتر والقلق إلى قلوبنا فورًا..

قلت لطارق وكريم: ما رأيكما لننتهي من قصة تلاعب ذلك المصباح فلنطفئ الكهرباء حتى الصباح؟ وفي كل الأحوال سوف ننام ولن نحتاج النور في شيء..

قال لي طارق: حسنًا أطفئه أنت.

فقلت: بل أنت.

فقال طارق: إذن يطفئه كريم.

فرد كريم: أنا لن أتحرك من مكاني.

كان كل منا يحاول أن يجد في رفيقيه الشجاعة التي يحاول هو أن يصطنعها أو يتظاهر بها حتى يقل التوتر قليلًا.. ولكن في الحقيقة كنا على درجة من التوتر وصلت لحد الخوف..

اتفقنا أن ننام والنور مفتوح وليغطِ كل منا رأسه حتى لا يوتره تلاعب النور أكثر.. نحن في الشتاء والجو بارد ونريد أن ننعم بليلة دافئة حتى الصباح.. شددت الغطاء على رأسي كذلك فعل طارق وكريم ونمنا..

مرت عشر دقائق كنت أفكر في ما سأفعله في الغد في الكلية وما سأشتريه لزينة الغرفة حين جاء أحد الرفيقين يوقظني.. وضع يده على صدري وأخذ يوخزني وخزًا بيده كيلا يصنع ضجيجًا للثالث..

فقلت له: اتركني لن أقوم سأنام..

استمر يوخزني بل أصبح وخزه أشد تتابعًا وألمًا.. فخُيل إليّ أنه خائف ويريد إيقاظي لأطفئ النور.. وأصررت على عدم القيام.. لم يتوقف الوخز فهممت أن أقوم لأمسك الوسادة وأضربه بها..

فقمت فورًا وأنا أقول: يا أخي اتركني وشأ.....

لم أجد أحدًا بجانبي أو حولي.. نظرت إلى طارق فإذا به مستقر على سريره وإذا بكريم يغط في نوم عميق..

كانا مستقرين بلا حراك ولا أثر يدل على أن أحدًا منهما كان بجانبي وقفز على سريره.. ففزعت وناديت عليهما بهدوء وكأني أخشى أن يسمعني أحد..

قام طارق الذي كان قد غط في النوم فعلًا.. بينما كان كريم غارقًا في النوم حتى إنه لم يسمعني أصلًا.. ظللنا ننادي عليه أنا وطارق بعدما قصصت عليه ما حدث.. قام كريم متضجرًا منا وقال: ماذا تريدان؟

قلت: لقد شعرت بوجود شيء غير بشري في هذه الغرفة..

انتبه كريم ونظر إلى طارق الذي كان مبتسمًا ابتسامة استسلام فقد كان على يقين أني أكثر وعيًا وعقلًا من أن أدعي أو أتوهم شيئًا لم يحدث.. ظل كل منا على فراشه لا نتحرك.. كأننا نخشى من وضع أقدامنا على الأرض.. اتفقنا أن نقرأ القرآن وننام في هدوء وضوء الغرفة مفتوح.. وفعلنا.

✿✿✿

كان صديقي الجديد طارق شابًا بسيطًا لم تسبق له خبرة في تلك الأمور وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرض فيها لنشاطات غريبة من هذا النوع.. بينما كان كريم صديقًا قديمًا أعرفه منذ المدرسة الثانوية.. كان حافظًا للقرآن.. وكانت له تجربة سابقة ولكن مع

كائنات غير شيطانية فقد كان يرى بعض الكيانات الشفافة البيضاء تشبه الدخان.. على هيئة رجال يقفون في بيته ويصلون من وقت لآخر.. ولم يكن يرى منهم أي شيء يؤذيه بل لم يكن يشعر بخير إذا ما اختفوا عن أنظاره فترة.. كان الأمر بالنسبة لي ليس فيه مشكلة كبيرة فقد كنت بطبعي أحب هذه الإثارة وتستأنس بها نفسي ما دمت لا أتأذى.. كما كانت خبرتي سابقة مع رؤوف وراندا..

في اليوم التالي بدا كأن ثلاثتنا نتجنب الحديث حول الموضوع.. ذهبنا إلى الكلية وعدنا إلى غرفتنا في هدوء.. لم يكن عندنا الرغبة في تذكر ما حدث بالأمس.. ما زال نور الغرفة يتذبذب ضوءًا وظلامًا ولكن الأمر أصبح معتادًا وأصبحنا لا نكترث به..

ذهبنا لنغلي الماء في الحمام - حيث مواقد الغاز في المدينة الجامعية - لصنع الشاي.. خرجنا سريعًا وعدنا نحن الثلاثة في دقائق خمسة.. دخلنا الغرفة التي كنا أحكمنا إغلاقها بالمفتاح جيدًا.. ونحن نضحك.. ولم نكن نعلم أن مفاجأة في الانتظار..

تسمرت أعيننا نحن الثلاثة على الأرض بينما ارتسمت ملامح الانزعاج والتوتر علينا عندما رأينا الشاي مبعثرًا على أرض الغرفة وكذلك السكر.. بينما عبوات الشاي والسكر موجودة في مكانها على المنضدة ومغلقة بإحكام.. ولكنها منقوصة بقدر الشاي والسكر على الأرض..

قال طارق: هل هذا حقيقي؟

قلت له: نعم نحن نرى نفس الشيء ولا وهم في الأمر.. لا بد أن هناك من صنع هذا.

قال كريم: كيف وقد كان المفتاح معنا ولم نغب عن الغرفة دقائق ليدخلها أحد بسرعة ويخرج بسرعة؟

قلت: إذن هذا ما كنا نهرب منه طيلة النهار.. يبدو أن هناك شيئًا ما بهذه الغرفة فعلًا..

لم يعد لنا حوار في ذلك اليوم إلا هذا الموضوع وقد أصبح البحث عن تفسير مادي علمي أو حتى تفسيره بالأوهام غير جدي.. أصبحنا على يقين أن هناك كيانًا غير بشري يسكن هذه الغرفة..

قررنا النوم بشجاعة والدفاع عن غرفتنا ضد أي شيء فنحن رجال ولن تهزنا تلك الكيانات.. كما كنا نمني أنفسنا أننا تسرعنا في الحكم على الأمر وربما ليس هو كما نعتقد.. ذهب كل منا إلى فراشه.. أطفأ كريم النور وتمدد على فراشه الذي كان مواجهًا لفراشي.. وبجواره باب زجاجي يطل على الشرفة الخارجية العمومية للطابق الرابع الذي نسكنه.. كانت الغرفة لا تغرق في الظلام أبدًا.. فالزجاج من كل مكان والأضواء الخارجية تطل منه دائمًا لا سيما أبراج النور العمومية التي تنير طوال الليل.. كان الزجاج مطليًا بلون داكن ليمتص شيئًا من الضوء الخارجي ولكنه لم يفلح في تعتيم الغرفة بالكامل..

بعد مرور بعض الوقت في محاولات فاشلة للنوم نظرت تجاه كريم ثم رفعت عيني على ثقوب في الطلاء على زجاج الباب بجواره.. تأملت

فيه.. ربما لم يجدر بي ذلك.. ولكنه القدر الذي أراد أن يزيح شيئًا من السُتُر من على أسرار تلك الغرفة.. إنها ليست ثقوبًا في الطلاء.. إنها صورة وجه تم نحتها في الطلاء.. إنها صورة جمجمة ذات قرون.. إنها وجه شيطاني..

قمت من مكاني وتوجهت في الظلام الممزوج بضوء الخارج لأتبين ذلك الوجه ووقفت بجوار فراش كريم.. وإذا بكريم يقف مفزوعًا.. فقلت له: لا تخف.. إنه أنا مازن.

لم يرد عليّ.. فدققت النظر له فإذا به ينظر مفزوعًا إلى الجدار خلف ظهري.. ويشير في خوف شديد..

كريم: اُنظر يا مازن!

فنظرت خلفي لأرى امرأة كاملة ترتدي زيًا أسود.. مبعثرة الشعر.. ترفع ذراعًا وتوجهه نحونا كأنها تتسول.. بينما الذراع الأخرى ساقطة بجانبها كأنها مشلولة.. تقف على المنضدة الملتصقة بالجدار.. امرأة كاملة ولكنها قصيرة.. لا ليست قصيرة.. إن أبعادها غير منطقية.. هي امرأة كاملة وليست قزمة ولكن طولها حوالي متر.. لقد بدت وكأننا نرى صورة هولوجرامية أو صورة ثلاثية الأبعاد لامرأة.. عندما بدأت تتحرك نحونا نزلت على الأرض فصارت بحجم المرأة الطبيعية.. كانت تمشي على قدم وتجر الأخرى.. جريت على مقبس النور لأفتح..

فإذا لا شيء..

اختفت المرأة وبقينا كالأصنام لدقائق نلملم شتات الأفكار والكلمات قبل أن نتكلم أو يتحرك أي منا من مكانه.

أول شيء جال بخاطري هو أن أنظر فوق المنضدة.. لا يوجد شيء.. لا يوجد أثر.. فنظرت إلى الجدار الذي كانت المرأة تقف أمامه.. لاشيء سوى جدول وأرقام وبعض الخطوط العشوائية.. فتجولت بعيني على الجدار حول هذا المكان.. هذه قصيدة شعر مكتوبة بخط واضح.. وحكمة مكتوبة بخط آخر.. قانون فيزيائي.. لا شيء على الجدار سوى آثار مذاكرة من سبقونا في سكنى هذه الغرفة..

خلفتنا تلك الحادثة منهكين كأنما كنا نعدو في سباق.. أيقظنا طارق وقصصنا عليه الموقف.. فتيقظ وجلسنا حائرين حتى الصباح..



(٥)

مع الأيام بدأت أخبار غرفتنا تنتشر في المدينة الجامعية بعد أن حكى كل منا لمن يقابله في صالة التلفاز والمسجد والحمام والمطعم.. تناقلت الناس الحكاية.. أصبحت الغرفة ٤٤٩ حديث المدينة.. وأصبح ثلاثتنا مدار أحاديث الناس في الصباح.. وأحدوثة سمرهم قبل النوم.. حتى قابلني أحد الشباب في يوم في الحمام ونحن نجتمع على صنع الشاي.. فسألني: هل أنت من سكان الغرفة ٤٤٩؟

فقلت له: نعم..

فقال: أنا زاهر ولقبي قلب الأسد.. أريد أن أستبدل معك الغرفة..

فقلت: كيف؟

قال: بأن أفرغ لكم غرفتي وتتركوني وحدي في غرفتكم.

فقلت له: ولماذا؟

فقال: لأني أريد أن أتزوج من إحدى الجنيات.

فقلت له: وما أدراك أنك إن بقيت في الغرفة ستقابل جنية وستتزوجك.. لقد صار لنا شهر ولم نر أي بادرة إيجابية أو محاولة تواصل واحدة من أي كيان من الكيانات التي تسكن تلك الغرفة الملعونة.. كلها ألاعيب شيطانية فقط.

قال: أنا أعرف كيف أفعل هذا.. فأنا ممسوس من الجن.. والجن يكبلوني أحيانًا بالقيود وأسمع تهديدات تأتيني في أذني..

عندها شعرت بقشعريرة تسري في جسدي فاعتذرت له بأني لست الوحيد صاحب القرار كما أني اتفقت مع أصحابي ألا نتخلى عن بعضنا البعض ونظل معًا حتى النهاية.. اعتذرت وذهبت..

۞۞۞

أرهقتنا تلك الغرفة وذلك التفكير المستمر.. أرهقنا التوتر الدائم.. فقررنا في يوم أن نخرج لنتنسم الهواء.. صنعنا أقداح قهوتنا وقررنا الصعود إلى السطح.. لم نخرج إلى سطح ذلك المبنى من قبل.. ليس بالمكان الرائع ولكنه نوع من التغيير والتجديد قد يمتص كل ما نمر به من مشاعر سلبية.. عادة يفعل التغيير ذلك وتجديد المكان.. فلكل

مكان روح.. وتلك الروح ولا شك تتفاعل مع أرواح المتواجدين.. سلبًا وإيجابًا..

صعدنا إلى السطح.. مكان بعيد.. لفحات نسيم وأصوات طيور.. كان المبنى كبيرًا جدًا.. ومساحة ذلك السطح ضخمة جدًا.. كان الوقت بعد الغروب بقليل.. لم يكن ثمة مصباح يضيء سطح البناية.. إلا ما بقي من ضوء الغروب.. وما زاغ من الأضواء في الأسفل.. لم يكن كثير من الناس فوق السطح.. كان ثلاثتنا نستمتع بالنسيم.. بينما كان على مسافة حوالي عشرين مترًا بعض الشباب يلعبون الكرة..

قال طارق: ما أجمل هذا النسيم.. لم أظن أن الجلوس هنا ممتع إلى هذا الحد..

فقلت له: نعم عندك حق نحمد الله أننا وجدنا متنفسًا بعيدًا عن الصخب بالأسفل..

قال كريم: ولكن يبدو أن المكان ذو شعبية كبيرة فالناس لا يكتفون بالصعود بل يلعبون أيضًا..

قلت له: جيد لعلنا نستعد في المرة القادمة ونشاركهم اللعب..

مر وقت قصير حتى تنبه طارق فجأة وقال: ألا تلاحظون شيئًا غريبًا؟ ما زال هؤلاء الشباب يلعبون برغم الظلام.. كيف يلعبون الكرة بنفس الحماس؟ كيف يرون الكرة ليلعبوا أصلًا؟

قام كريم مسرعًا نحوهم وقال مبتسمًا: سآتي لكم بخبرهم فورًا..

بينما نظرت إلى طارق وقلت له: شيء غريب فعلًا كيف لم ننتبه؟ ألا تلاحظ أنهم لا يصدرون أي صوت.. ولا نسمع صوت الكرة.. ألا تلاحظ أنهم يتحركون بنمط ثابت لا يكاد يتغير؟

نظر إليّ طارق مفزوعًا وانتبهت أنا أيضًا للكارثة.. فصرخنا في آن واحد: كريم تعال اااا.. تعاااال اااااا

قمنا مسرعين نحو كريم الذي لم نعد نراه في الضوء الخافت الذي يضيء السطح.. ولا نسمع منه ردًا.. ظللنا نسرع الخطى نحو المكان الذي كنا نرى فيه شبابًا يلعبون.. وكلما جرينا نحوهم كلما شعرنا أنهم يصغرون.. قلت: طارق.. ما هذا إنهم أطفال؟

وما إن أدرك طارق ما أدركت حتى صرخ: أعوذ بالله هؤلاء ليسوا بشرًا..

وما كاد طارق ينهي كلماته حتى فوجئنا بهم يقفون متسمرين.. من كان وجهه لنا ومن كان ظهره لنا كان ينظر خلفه إلينا.. كانت عشر عيون متوهجة في الظلام تنظر إلينا.. وما عرفت أنهم خمسة إلا من عدد عيونهم.. فتجمدت في مكاني أنا وطارق.. وقد سرت في جسدي قشعريرة وارتفعت نبضات قلبي حتى كاد نفسي يتوقف.. ثم فجأة استداروا جميعًا وأسرعوا نحو سور السطح وقفزوا في الشارع..

جرينا خلفهم حتى وصلنا إلى السور فوجدنا «كريم» يقف متخشبًا كأن على رأسه الطير.. ينظر إلى أسفل.. فلما وصلنا إليه قلنا له: كريم الحمد لله أنك بخير.. هل رأيت ما رأيناه؟

قال: بل رأيت أكثر.. انظروا لقد قفزوا هنا.. هل كنتم تعرفون أن هذا المبنى مجاور للمبنى الذي نسكنه.. ولا يفصل بيننا إلا جدار؟

نظرنا فتجمد الدم في عروقنا..

لقد كان المبنى المجاور لنا هو مبنى مشرحة المدينة وثلاجة الموتى..

✿✿✿

ذهبنا إلى غرفتنا لا ندري ما الذي نفعله.. كان طارق ترتعد فرائصه من الرعب الذي تعرضنا له.. في طريقنا قابلنا بعض أصدقائنا فسألوا: ماذا بكم؟

فقصصنا عليهم ما جرى.. وما كادوا يسمعون الخبر حتى قالوا: لن تمر الليلة إلا وقد أنهينا هذه المشكلة..

اتفقنا على أن نجتمع بعد ساعة نحن الستة.. ثلاثتنا وثلاثة أصدقاء آخرون.. لنقرأ سورة الصافات ونطهر تلك الغرفة مما بها.. تجمعنا في الموعد وأغلقنا الباب وقام زميل لنا يدعى شرف بإغلاق الباب بالمفتاح من الداخل حتى لا يخرج أحد من الغرفة مهما حدث..

جلسنا وفرشنا سجادة صلاة أسفل المصباح وسط الغرفة.. وجلس كريم الذي كان يحفظ القرآن ليقرأ الصافات.. لم يكد كريم يتخطى الآية الثانية حتى انفجر مصباح الغرفة مصدرًا صوت انفجار

عالٍ.. وانطفأ النور ثم في لحظة عاد ثم انقطع النور عن المبنى.. وبقي في غرفتنا لثوانٍ.. ثم عاد إلى المبنى وانقطع في غرفتنا..

فأشعلنا أضواء الهواتف في إصرار على أن نُكمل.. كان صوت قراءة القرآن عاليًا فجاء أحدهم ليسأل ماذا يحدث ويستفسر عن صوت الانفجار الهائل الذي حدث.. فحاول طارق أن يفتح الباب لكنه كان مغلقًا والمفتاح مع شرف.. الذي قام ليبعد طارق قائلًا: لن ينفتح الباب فهو مغلق ومفتاحه معي ولن أفتحه الآن..

ولم يكد شرف ينتهي من كلماته حتى سمعنا صوت مزلاج القفل ينفتح وانفتح الباب فجأة..

وقفنا مذهولين للحظة.. والباب مفتوح.. لحظات حتى أدرك الجميع ما حدث.. فانطلق شرف وطارق هروبًا من الغرفة وخرج كريم وبقية الأصدقاء.. ثم تمالكت أعصابي وتمكنت قدماي من أن تحملاني فخرجت وأغلقت الباب..

✿✿✿

تجمعنا في المطعم.. كنا نحن الستة نفكر ولا نتكلم.. كان ما حدث يدور بأذهاننا ولا ندري ماذا نفعل.. أقسم شرف أنه لن يدخل تلك الحجرة مجددًا مهما حدث.. بينما أصر محمود على أن نتجمع كلنا في تلك الغرفة تحديًا ونبيت فيها.. تناقشنا كثيرًا واستقر رأينا على أن

نبيت في الغرفة ونتحدى الكيانات الغامضة تلك.. كنا خمسة.. ثلاثتنا ومحمود وعز الدين.. أخذ كل منا مصحفه في صدره وأغلقنا النور ونمنا..

لا أدري كم غفونا ولكننا نمنا بعمق.. كان نومًا عميقًا لكنه لم يطُل كثيرًا حتى فتحت عيني على صوت مزعج.. صوت أقدام تمشي متثاقلة تحك الأرض حكًا.. كان الصوت واضحًا.. إنه من داخل الغرفة ولا شك.. لم يكن بالخارج.. ثم سمعت صوت أحد ما يشرب الماء.. لم أكن أجرؤ على رفع رأسي لأنظر.. ناديت بصوت أعلى من الهمس: من؟ من؟ كريم؟

فوجئت بصوت كريم يرد: أنا على سريري.

فرد طارق: وأنا.

قال محمود: وأنا أيضًا.. أتسمعون ما أسمع؟

قلت: نعم.

قال: سأقوم وأفتح النور لنرى.. ما الذي يح........

سكت صوت محمود فجأة..

نادى طارق: محمود؟ محمود؟ لماذا لا تر.......

انقطع صوت طارق.

قال كريم: ما بالكم ما الذي يحدث؟ انطق.....

عندما انقطع صوت كريم شعرت بفزع وتجاسرت واستجمعت نفسي وقمت.. ولم أكن أتصور ما الذي يمكن أن أراه..

نظرت فإذا الأربعة جالسون على الفراش وينظرون إلى أسفل.. وعيونهم وأفواههم مفتوحة على اتساعها.. نظرت فتجمدت مكاني تمامًا مثلهم..

لقد كان نصف الغرفة السفلي مضيئًا تمامًا كما لو كان المصباح مفتوحًا.. بينما نصف الغرفة العلوي مظلم تمامًا كأننا في قبر مغلق.. ولم يكن النور يستطرق على الظلام ولا العكس.. كأن بينهما برزخًا لا يبغيان.. وعلى الأرض في النور يتمدد رجل طويل بطول الغرفة ورأسه عند الباب.. له شارب طويل.. طال حتى غادر وجهه وتمدد بجانبه على الأرض.. يده اليمنى غير موجودة.. عيناه شديدتا الحُمرة.. ولا فم له..

لم يكن هناك مجال للتفكير.. لقد أصاب الشلل عقولنا وأجسادنا.. فحتى إذا فكرنا في أي شيء.. فالأرض غير ممهدة للحركة مع هذا الذي يتمدد عليها.. قمت لأقف على سريري ومددت يدي ببطء وفتحت النافذة التي تعلو جانب السرير.. وما إن دخل النور من النافذة حتى تبدد كل ما كان في الغرفة بلحظة..

أعتقد أن أعصابنا قد انهارت وأجسادنا المتشنجة استرخت فجأة إلى حد الانهيار.. لم يكد أحد منا يملك القدرة على الكلام.. جرجر كريم قدمه ليضيء المصباح وجلس يلتقط أنفاسه.. وبقينا على الصمت ما يقرب من عشر دقائق.. كسر الصمت أذان الفجر فقمنا لنصلي..



(٦)

في الصباح ذهبت مباشرةً إلى مدير الإدارة طالبًا منه تغيير الغرفة.. إلا أنه أجاب بأن السكن لا يتوفر به غرف شاغرة الآن كما أبدى استياءه وسخريته من الشكوى وكأنه يتهمنا بالجنون..

لم أدر ماذا أفعل فذهبت إلى الجامعة متعبًا منهكًا من قلة النوم والتوتر.. قابلت في الجامعة صديقًا لي والذي أبدى اهتمامه بهيئتي المتعبة.. وأصر على استكشاف الأمر.. فقصصت عليه ما أمُرّ به..

فقال: أتعلم؟ لن يجد لنا حلًا إلا زميلنا أمين.. فقد سمعته يتحدث عن شيخ في قريته يتعامل مع هذه الأشياء.. وتحدث أيضًا عن رجل صالح يعرفه.. ولي من أولياء الله الصالحين يلجأ إليه الناس أيضًا ولكنه في الصعيد..

قلت له: لا لن أسافر للصعيد.. أريد أقرب أحد ممكن..

قابلنا «أمين» الذي كان ودودًا للغاية.. أبدى أسفه لما يحدث واتفقنا على أن يأخذ لنا موعدًا مع الشيخ (راجي) في قريته التي تبعد عن الجامعة حوالي أربعين دقيقة.. أفضل لنا من السفر للصعيد وتضييع الوقت..

وفي اليوم التالي كان الموعد.. تقابلنا في الجامعة ثم انطلقنا إلى حيث يسكن الشيخ راجي في القرية.. كان الشيخ راجي رجلًا متوسط الطول.. أسمر البشرة.. أصلع.. يرتدي جلبابًا ويجلس في ساحة بجوار بيته الريفي الجميل.. كان يجلس وبجواره حوض ماء كبير.. طوله حوالي مترين ونصف أو ثلاثة أمتار.. وشبه ممتلئ بالمياه.. كان الزحام شديدًا على مجلسه بمن يشكون من الأعمال والسحر ومس الجن.. عندما وصلنا كان يتعامل مع حالة لا أكاد أنساها..

كانت فتاة شابة حديثة الزواج.. كانت تلبس فستانًا أبيض وعلى صدرها نجمة سداسية فضية كبيرة جدًا.. لم أر أحدًا من قبل يرتدي نجمة بهذا الحجم.. إنه الحجم الذي يعلق على الحوائط وليس على الصدور.. إنه رمز ديني يهودي معروف باسم نجمة داوود.. ويقف بجوارها زوجها.. شاب يافع يبدو عليه الإرهاق.. فوجهه عليه آثار ضرب مبرح.. وآثار جروح تبدو أنها بفعل أظافر زوجته.. وملابسه ممزقة كأنه كان في شجار عنيف وجلس يحكي قصتهما..

قال: تزوجنا منذ ثلاثة أشهر.. ولم أدخل بها حتى الآن.. كلما اقتربت منها ظهر عليها ذلك الكيان الذي يتلبسها.. وتضربني ضربًا

شديدًا حتى أفقد وعيي.. ثم تدخل الحمام وتغلق الباب على نفسها ويستمر هو في ضربها إلى أن تُنهك قواها فتخرج..

لقد أجبرها على بيع كل ما تملك من الذهب لتشتري تلك النجمة الكبيرة وتعلقها على صدرها ليل نهار.. رغم أننا مسلمون..

قال لها الشيخ راجي: اجلسي هنا أمامي..

فجلست..

فأمسك الشيخ راجي عصا صغيرة جدًا لا تتعدى خمس عشرة بوصة.. وضربها ضربات خفيفة على ذراعها وهو يتحدث.. ولكن الفتاة كانت ترتعد كأنه يضربها بسياط من نار.

كان يقول: أشموداي اللعين.. أنت مرة أخرى؟ ألم أحذرك أن تقترب من أجساد بنات الإنس؟ أكل عام؟ ألا يحلو لك إلا الأبكار بالذات؟

فنطق صوت حاد على لسان الفتاة قائلًا: أنا حر.. هي لي ولن تكون لغيري.. هي زوجتي أنا..

فقال له راجي: اخرس أيها النجس.. عندما أتكلم تخرس أنت ولا تتكلم إلا عندما آمرك بالكلام.. اخرج الآن ولا ترجع لها وإلا قطعت رقبتك..

فهم الصوت أن يقول: لا........

ولكن الشيخ راجي كان أسرع.. فأمسك بالفتاة بيد واحدة وهو جالس وألقى بها في حوض المياه في لحظة.. وبلا أي مجهود.. وعاد ينفض ملابسه في هدوء..

فزع الناس مما حدث.. بينما كانت الفتاة تغوص وتطفو..تصرخ وتتشنج.. تخرج يديها من الماء كأنما تستنجد.. ثم تعيدهما بقوة إلي الماء كأنما يسحبهما أحد.. كانت تتقلب ظهراً لبطن عندما هم زوجها ليدركها فقال له الشيخ راجي: اتركها لا تخف.. كل شيء سيكون على ما يرام.. هذا من الجن العاشق.. إنه شيطان عبراني.. أنا أعرفه وأخرجته من غيرها قبل ذلك مرتين..

فقال الزوج: أيعني هذا أننا لسنا مسحورين؟

فقال راجي: لا.. لا.. هو يحبها ويريدها لنفسه.. احرص فقط على ألا تخلع ملابسها وتكثر من النظر في المرآة مرة أخرى.. واجعلها تديم الذكر في الصباح والمساء.. فالذكر يعمي الشياطين عن عورات بني الإنس..

هؤلاء ينظرون إلى عورات الإنس فإذا أحبوه فإنهم يفعلون به كما يفعلون بزوجتك.. وأحيانًا يكون بينهما الولد.. هؤلاء أعطوا العهد إلى النبي سليمان فلم يسجنهم عندما سجن الشياطين.. ولكنهم بعد موته أخلفوا عهدهم..

فقال الزوج: هل يمكن أن يكون الإنس مُستباحًا من الجن بهذا الشكل؟

فقال راجي: لا بالعكس هناك جدار ثقيل بين العوالم بعضها البعض.. ولكن هناك بوابات تنفتح بينها.. بوابات يفتحها السحرة بالطقوس والعزائم.. وبوابات تفتح بالطلاسم.. وبوابات يفتحها الناس بحماقة وعدم معرفة.. وطرق أخرى كثيرة.. والجن العاشق يتخذ المرايا أحيانًا وليس دائمًا بوابات للنفاذ إلى عالم الإنس.. فلا تُطل النظر إلى المرآة..

بينما كانوا يتكلمون لاحظ الجميع أن حركة الفتاة قد هدأت فجأة وكأنما قد غرقت.. فقام الشيخ راجي في لحظة بجر الفتاة خارج الحوض وألقى بها على الأرض.. فإذا بالنجمة التي على صدرها متفحمة تمامًا.. ثم أخرج من جيبه آلة حادة.. وقام بضرب الفتاة في إصبع قدمها الإبهام من أسفل.. فخرجت نقطة دم واحدة سوداء.. مسحها بمنديل وقال لها: حمدًا لله على سلامتك..

ذكرني ذلك بما حدث مع راندا في تلك الليلة البعيدة.. وأخذت أتجول في ذاكرتي بين أحداثها حتى لم أدرك أن «أمين» يشدني لنجلس أمام الشيخ راجي لنعرض عليه الشكوى..

سمع الشيخ ما جرى لنا.. ثم أطال النظر والتفكر وهز رأسه مرارًا وكأنه يستمع إلى أحد ما يحدثه.. كان كثيرًا ما يذكرني بالشيخ سابق..

ثم قال الشيخ راجي: ليس عندك شيء.. أنت لست مسحورًا وما عندك في السكن ربما هو من آثار طقوس سحر حدثت في هذه

الغرفة.. نصيحة اتركها.. ولا تضيع وقتك حتى ـ في تطهيرها.. إنها ليست بيتك لترهق نفسك بلا داعي..

ثم نظر إليّ ـ في شفقة واضحة وقال: احذر يا ولدي.. فهناك شيء غامض حولك.. فحصن نفسك بالذكر.. وإذا صادفت بابًا مفتوحًا بين العوالم فلا تعبره.. فطريق العودة الوحيد هو الدم..

لم أفهم تلك النصيحة.. وإن كانت قد أثارت مخاوفي.. إلا أني لم أطل الكلام.. ولم أسأل.. قمنا من عنده مسرعين وعدنا وقد أخذت قراري بأن أترك أنا وأصدقائي الغرفة..

عندما عدنا ذهبت إلى أحد المقاهي كي أستريح قليلًا من السفر.. كنت ـ في الواقع أهرب من الذهاب إلى تلك الغرفة.. جلست أشرب قهوتي وأبحث ـ في هاتفي على الإنترنت عن أي شيء له علاقة بالسحر.. فوجدت مقطعًا لساحر تائب.. كان يتكلم فيه عن الأعمال والسحر والطلسمات.. وكان من بين ما جاء فيه أنه استعرض طلسمًا يُسمى خاتم داوود.. إنه النجمة السداسية اليهودية المشهورة.. وطلسمًا اسمه خاتم سليمان وطلسمًا اسمه خاتم يعقوب.. وآخر اسمه خاتم أصحاب الكهف.. هذه الطلسمات أسماها الجن خواتم.. وألصقوها بأسماء الأنبياء كي يخدعون بها الناس فترتديها تبركًا وثقة ـ في الأنبياء.. والحق أنها طلاسم وشفرات تعمل كمفاتيح للبوابات بين عالمي الشياطين والإنس.. واستعرض طلسمًا يعمل كشفرة لإناث الجن إنه (خاتم بنت إبليس).. و......

مهلًا هذا الطلسم لإناث الجن......

إنه جدول حسابي..

أنا أعرف هذا الجدول.. إنه.....

يا ربي كان الشيخ راجي محقًا.. يجب أن أرى الرسوم على الحائط في الغرفة فورًا..

قمت مسرعًا إلى الغرفة.. لم يكن طارق أو كريم متواجدين بها.. كانت باردة كئيبة فارغة مظلمة برغم الضوء.. توجهت فورًا إلى الحائط المواجه لفراشي.. كان عليه جدولًا حسابيًا مكتوبًا بالقلم الأزرق.. رأيته من اليوم الأول لدخولي الغرفة وتمددي على ذلك الفراش وظننته من كان قبلنا هنا كان يستذكر دروسه ويشرح لنفسه..

يا إلهي إنه نفس الجدول.. تسع خانات مجموع كل ثلاث في أي اتجاه هو ١٥.. مجموع الخانات الرأسية ١٥ والأفقية ١٥ والمائلة ١٥ كما وصفها الساحر المحنك.. إنه شفرة بنت إبليس..

تتبعت بقية الرسوم على الحائط.. ما هذا؟ إن معظم ما هو على الجدار طلاسم.. فهذا خاتم داوود.. وهذا خاتم يعقوب.. وهذا خاتم سليمان.. والجدول مكتوب على أكثر من جدار.. وهناك طلسمًا على الباب.. وفوق المنضدة........

فلمعت في عقلي فجأة فكرة غريبة.. أغلقت جميع النوافذ ونور مصباح الغرفة فأظلمت.. ولم يبق إلا الضوء الداخل من ثقوب الطلاء في النوافذ..

يا ربي لم أكره من قبل أن أكون محقًا إلى هذا الحد..

إن الضوء النافذ من ثقب الطلاء يسقط مباشرة على الطلسم الجدول فوق المنضدة حيث ظهرت المرأة لنا.. والنافذة الأخرى يسقط منها الضوء على طلسم غريب على الباب حيث كان رأس الرجل الممدد على الأرض.. إن الثقوب نفسها ترسم وجهًا شيطانيًا على الزجاج يظهر كصورة سلبية فوق الطلسمات على الجدران..

شعرت وقتها أن جسدي يقشعر وأحسست ببرودة غريبة وشديدة في الجو.. ثم شعرت بدوار عنيف ورائحة تشبه العفن أو الرطوبة.. ولم أتمالك نفسي من الرعب الذي اجتاحني فسقطت على الأرض..

❁❁❁

أيقظني طارق وكريم.. فوجدت نفسي على الفراش في الغرفة فقمت منزعجًا في حالة هيستيريا شديدة قلت لهم: أما زلنا في هذه الغرفة.. هيا نخرج من هنا.. إننا محاطون بالسحر والطلاسم والكفريات من جميع الجهات.. وشرحت لهم الموقف فانزعجا بشدة.. وقمنا جميعًا فحزمنا أمتعتنا ورحلنا.. رحل كل منا إلى بلده على أن نلتقي بعد أسبوع في الجامعة.. ليأخذ كل منا قسطًا من راحة الأعصاب ثم نلتقي فنبحث عن سكن جديد خارج أسوار المدينة الجامعية..

❁

(٧)

عندما عدت إلى مدينتي أخذت يومًا للراحة والهدوء ثم قررت في اليوم التالي أن أتصل بالسيدة راندا.. وكنت قد مضى عليّ وقت طويل لم أسأل عنها.. ربما أكثر من ستة أشهر.. وكانت قد غيرت مسكنها إلى مسكن جديد بعيدًا عن شقتها القديمة التي أغلقتها تمامًا إلى حين.. فاتصلت بها..

- أهلًا بك يا مازن كيف حالك؟

- كيف حالك أنت يا سيدتي لم أسمع صوتك منذ مدة؟

- الحمد لله أتعافى.

- تتعافين؟ من أي شيء؟

- منذ وفاة والدي وأنا لم أذق الراحة..

- ماذا؟ الحاج طاهر توفي؟ متى؟

- منذ قرابة الشهر.

- البقاء لله.. سآتي لزيارتك في المساء هل عندك مانع؟

- أهلًا بك في أي وقت..

ذهبت لها في المساء وطرقت الباب ففتح زوجها رؤوف وقد ظهر عليه الإعياء وكأنه قد أصبح في الستين من عمره..

- أهلًا يا مازن تفضل.

دخلت فوجدت راندا جالسة على مقعد قد ظهر عليها الحزن فجعلها تبدو أكبر من سنها بسنين.. تُحرك ذراعها ببطء لتتناول ما تريده من حولها.. لا أدري ما هذا.. أيفعل بهما الحزن على الحاج طاهر كل هذا.. أم أن هناك أمرًا غامضًا لا أعلمه؟

قلت: البقاء لله لقد أحزنني موت الحاج طاهر.. وأعتذر عن التأخير فقد كنت في الجامعة منشغلًا فهو عامي الأخير والضغط شديد جدًا والوقت مزدحم لا يكفي لأي شيء..

قالت: لا عليك المهم أن تكون بخير.

قلت لها: كيف حدث هذا هل كان مريضًا؟

فقالت: لا إنه حادث حريق.. وما زلنا لا نعلم سببه حتى الآن.. التحقيقات المبدأية ترجح أنه كان هناك شيء مثل عود ثقاب أو شمعة

مثلًا سقطت وأمسكت نيرانها في السجاد والستائر وانتشر الحريق في البيت ولكن التحقيق لم ينته بعد..

قلت: لا حول ولا قوة إلا باللّه.. رحمه اللّه رحمة واسعة.. هو من الشهداء إن شاء اللّه..

إذن وكيف حالكما هل الحزن هو ما أثر على صحتكما هكذا؟ لقد خسر الأستاذ رؤوف من وزنه كثيرًا.. وشعره قد غلب بياضُه سوادَه.. وعينه شديدة الحمرة.. وأنت أراك تتحاملين على نفسك لتتكلمي أو تتناولي شيئًا..

قالت: لا ليس بسبب الحزن.. فأبي مات بعد أن أصابنا ما أصابنا.. أما رؤوف فقد أصابه داء الهزال منذ شهرين.. ونرجح أنه داء السكر.. لكنه لم يجد وقتًا للكشف والفحوص الطبية.. وأما أنا فقد أصابني الشلل..

نزل عليّ هذا الكلام كالصاعقة.. لم أدر ما أقول لهما ولم أتمالك عيني فسقطت مني دمعة رحمة بهما..

قلت: وما أخبار الأولاد؟

قالت: الحمد للّه إنهم بخير..

لم أُطل البقاء عندهما بعد ذلك.. عدت إلى منزلي وأنا متألم.. كنت أريد أن أستلهم منهما القوة لما أواجه ولكن وجدتهما على أسوأ حال..

✿✿✿

عدت أنا وأصدقائي للجامعة.. التقينا لنبحث عن مسكن.. قضينا يومًا كاملًا نبحث فيه عن شقة صغيرة بلا فائدة.. في آخر الليل كان هناك سمسار أخير علينا أن نقابله.. ترددنا كثيرًا ثم ذهبنا وقابلناه.. كان الحاج زين السمسار من أقدم السماسرة في المدينة.. كان في الخامسة والستين من العمر.. وقد أمضى عمره في هذا العمل.. قابلنا في مقهى شعبي وأخذ يتجاذب معنا حديثًا وديًا..

الحاج زين: هل لكم كثير من الوقت تبحثون؟ يبدو عليكم الإرهاق.

أنا: نحن منذ التاسعة صباحًا نبحث بلا جدوى..

- وهل مضى عليكم كل ذلك الوقت منذ بدء العام الدراسي وأنتم بلا سكن؟

- لا، نحن نسكن في المدينة الجامعية ولكننا نريد تركها فهي غير مريحة.

قال باستنكار: غير صحيح.. المدينة الجامعية في بلدنا من أفضل ما يمكن ولم يشْكُ أحد منها قط.

- هذا ما حدث يا حاج.

- يا بني لا تغضب.. أنا مثل والدك.. صارحني.. ما هي شكواك الحقيقية؟

- بصراحة هي مسكونة.

- مسكونة؟ كيف؟

فقصصت له القصة كاملة وقلت له ما وجدناه.. وأن آخر من سكن هذه الغرفة قبلنا هو من تسبب في لعنها.. قال: وما اسمه هذا الفاجر؟

قلت له: لا أذكر ولا يهم حتى.. ما الذي سنفعله لقد سكنها منذ ثلاث سنوات ولم تُفتح بعده.. حتى أصبحت خرابًا.

قال كريم: أنا أذكر اسمه.. اسمه عاكف الجوهري.. لقد سألت المشرف عنه منذ الأسبوع الأول.

فضحك الحاج زين ضحكة عالية ساخرة وقال: هل أنت متأكد؟

قال كريم: نعم.

قال: عاكف الجوهري ساحر؟ أنتم لم تقابلوه إذن؟

قلنا له: كيف نقابله؟ لقد ذهب منذ ثلاث سنوات ومؤكد أنه عاد إلى بلده..

قال: عاكف الجوهري هنا في المدينة وهو طبيب أمراض نفسية يعمل في المستشفى العام.. وأنا من وفرت له الشقة التي يسكنها الآن.. وهو صديق عزيز ورجل طيب.. وتقيّ يعرف الله.. ولا يمكن أن تكون له علاقة بالسحر..

فقلت له: أرجوك أعطني هاتفه أو صلني به..

فقال: بكل سرور.

على الفور كلم الحاج زين الدكتور عاكف.

وسأله مباشرة: يا دكتور عاكف هل كنت في المدينة الجامعية منذ ثلاث سنوات؟

- نعم.

- هل كنت تسكن غرفة رقمها ٤٤٩؟

- نعم وكيف عرفت؟

- سكان الغرفة هذا العام معي الآن هنا ويريدون مقابلتك..

- لماذا ما الأمر؟

- عندما نلتقي سنحكي لك.

- إذن بعد ساعة سأنهي ورديتي وأقابلكم في المقهى الذي تجلسون فيه.

- شكرًا يا دكتور..

ثم أغلق الهاتف وقال: ألم أقل لكم إنه رجل طيب جدًا؟ سيأتي بنفسه إليكم..

مرت الساعة كأنها سنة حتى حضر الدكتور عاكف.. رجل هادئ الملامح مريح الوجه.. بشوش.. خفيف الظل على عكس ما توقعنا أن نراه من ساحر.. لم يكد يسمع ما نعانيه حتى ضحك من قلبه ضحكة أثارت استياءنا.

قال: أعتذر لكم وأقدر معاناتكم.. ولكن ما رأيتموه لا علاقة له بالغرفة.. ولا صلة له بما على الجدران.. فعندما سكنت بالغرفة كانت هذه الكتابات موجودة على الحائط ولم تكن هناك مشكلة وعشت بها ولا شيء من شكواكم حدث لي.

قلت له: أهي صدفة أن توجد طلاسم ونشاهد كيانات غريبة تطاردنا؟

قال: أنا لا أنكر ما رأيتموه.. ولكن بالفعل ليس له صلة بالكتابات على الجدران.. الطلاسم لا تعمل بهذا الشكل.. الطلاسم هي وسائل لاستحضار الجن ولكن ليست بمجرد كتابتها تُستحضر الجن.. لا بد من طقوس وعزائم وبخور وتحري أوقات محددة.. وأشياء أخرى..

قلت له: حسنًا لعل بقية الطقوس قد تمت من قبل ففتحت باب الدخول.. ولم يتم صرف ما حضر من الأرواح..

قال: ربما ولكن هذا لم يحدث وأنا فيها.. أنا لم أعانِ يومًا في هذه الغرفة.

قلت: وبم تفسر عدم رغبتهم في إسكاننا فيها في البداية إلا بموافقتنا.

قال: لا أعرف ولكني أعتقد لأنها كثيرة النوافذ فهي غير مريحة في النوم والضوء والضوضاء يدخلانها ليل نهار.. ومن يسكنها دائمًا ما يكثر الشكوى.. ويقدم الطلبات لتغيير السكن.. إن سُكناها مزعج بالنسبة لهم جدًا.. هذا ما عندي والله أعلم..

انتهت هذه المقابلة وأنا على يقين أن «عاكف» هذا هو من وراء القصة وإنكاره كان بمثابة التأكيد لي على ذلك.. ولكن ماذا سنفعل؟ لا شيء.. لا بد أن نتركها على كل حال..

۞۞۞

وجدنا شقة جديدة بمساعدة الحاج زين وانتقلنا فيها بالفعل وبدأنا فيها يومنا الأول.. شقة ضيقة ولكنها جيدة التهوية ومؤمنة تمامًا وهادئة نستطيع أن نقضي بها وقتًا هادئًا.. بالفعل كانت الليلة الأولى هادئة وجميلة.. نمنا فيها جميعًا باطمئنان.. وأنا على وجه الخصوص نمت باستغراق شديد.. نمت ما يقرب الاثنتي عشرة ساعة.. لم أدر بنفسي ولم أسمع صوت آلة التنبيه.. قمت وأنا سعيد ونشيط وشعرت أنها بداية جديدة ونهاية لكل ما عانيناه..

ولم أكن أعرف أنها الليلة الأخيرة التي سأنام فيها مطمئنًا.. أو أعرف فيها طعمًا لراحة البال..



(٨)

في الصباح ارتدينا ملابسنا وناقشنا مشكلة عدم تجهيز الشقة.. فهي غير مجهزة في المطبخ ولا الحمام ولا الإضاءة ولا توجد شماعات للملابس.. أشياء بسيطة ولكن استكمالها مهم ومرهق في الوقت نفسه.. اتفقنا على تقسيم هذه المهام بيننا.. سيذهب كلٌ منا في اتجاه.. اخترت لنفسي أبسط مهمة.. فقلت أنني سأشتري شماعتين واحدة بجوار باب حجرة النوم.. وواحدة على باب الحمام من الداخل وواحدة صغيرة بجوار باب الشقة الرئيسي للمفاتيح.. واتفقت معهما على أماكن تعليقها بالتحديد حتى لا نختلف إذا علقتها قبل حضورهما.. وافق صديقاي على ذلك واتفقنا أن نلتقي في المساء حيث سنعود للبيت في أوقات مختلفة..

عدت إلى المنزل وتناولت الطعام.. وبعدما أخذت قيلولة الغداء.. قمت لأبدأ في تعليق شماعات الملابس تلك.. ولكني فوجئت بأن الأماكن التي اتفقنا عليها للتعليق بها أثر.. يبدو أن أحد رفيقيّ دق مسمارًا بالفعل في الجدار حتى إنه أسقط جزءًا من طلاء الحائط وبياضه على الأرض من أثر الطرق.. ناديت على رفيقيّ..

أنا: من منكما دق تلك المسامير؟ لقد تشوه الجدار بلا داعي.

قال طارق: أنا لم أدق شيئًا.. وليس معي مطرقة ولا مسامير حتى.

ورد كريم: إنه أنت يا مازن من تعهد بتثبيت الشماعات..

قلت لهما: أنا لم أفعل أي شيء.. أنا هممت أن أبدأ الآن فوجدت هذا الأثر.. هل رأيتماه من قبل؟

قالوا: لا.. فالشقة جديدة وتجهيزها حديث.. ولم يسكن قبلنا أحد..

قلت: فكيف ذلك؟ إن الأثر في نفس المكان الذي أشرتُ إليه في الصباح.. وكذلك في الحمام وبجوار الباب.. إنه أثر مسمار تم دقه ثم خلعه.. في مكان دقيق جدًا مقارنة بما أشرت إليه بيدي هذا الصباح..

قال كريم بقلق: ماذا تقصد؟

قلت وقد بدا على صوتي الإحباط: أقصد أننا لم يكن معنا رابع.. واتفقنا على وضع مسامير في مكان بعينه.. فوجدنا أثر دق مسامير في نفس المكان بعدها بساعات.. حتى لو دخل أحد هذا المنزل في غيابنا فأنّى له أن يعرف ما اتفقنا عليه ويحدد مكانه بدقة.. وهذا ليس له سوى معنى واحد.

صرخ طارق: اللعنة.. اللعنة على ذلك العفريت.. اللعنة على عاكف.. اللعنة عليك يا مازن.. اللعنة على الجميع..

قلت له: وما شأني أنا.. أأنا أحضرته هنا؟

لم يرد عليّ.. نظر إليّ نظرة حادة.. ثم ذهب إلى الغرفة وارتدى ملابسه سريعًا وخرج..

وقف كريم محبطًا فاقد الحيلة وقال لي: ماذا سنفعل؟

✿✿✿

جلست وكريم نحاول أن نلهي أنفسنا في أي شيء لنتلهى عن الأفكار التي تعصف بعقل كل منا.. كنا نلعب الورق قبل أن نسمع صوت طرق شديد على الباب.. ظننته «طارق».. فقمت لأفتح فلم أجد أحدًا.. أوجست في نفسي خيفة.. دخلت فوجدت «كريم» ينظر لي في ذهول

وقبل أن يهم بالكلام سمعنا نفس الطرق على باب الحمام.. جرينا إلى الحمام.. فسمعنا الطرق على باب غرفة النوم.. فوقفنا حائرين..

فصرخت بصوت مرتفع: اذهب إلى الجحيم أيها الملعون.. أتظن أنك ستحول حياتنا إلى جنون بأفعالك.. لن أسمح لك.. سأ........

قطع كلامي ذلك الشيء الذي رأيته فجأة يقفز في الصالة..

إنه ضفدع..

وقفت أنظر إليه في تعجب.. بينما تحرك كريم بسرعة ليمسكه.. فقفز إلى داخل الغرفة.. فدخل كريم سعيًا خلفه..

فسمعته يصرخ: مااااازن.. تعال اااا..

دخلت فوجدت ثعبانًا كبيرًا يلتهم الضفدع ثم نظر إلينا وارتفع برأسه وجسمه حتى أصبح في طول أجسامنا..

فتحركنا للخلف.. وأشرت إلى كريم أن تحرك بهدوء ودون صوت حتى نخرج من الغرفة.. وما إن وصلنا إلى الباب حتى تحركنا للخارج بسرعة.. وأغلقنا الباب.. ونزلنا مسرعين من الشقة.. كان أول شيء نفكر فيه هو شخص متخصص في الأفاعي حتى يخلصنا من ذلك الشيء المحبوس في الغرفة..

ثلاث ساعات من البحث عن ذلك الشخص حتى عثرنا عليه.. مصطفى.. ذلك الرفاعي الكبير الذي يعرفه الناس في قرية بجانب المدينة.. رجل أسمر قصير فيه شيء من البدانة.. قصير الشعر أسوده.. جهوري الصوت تبدو عليه هيئة الوجاهة القروية برغم كونه فلاحًا شديد البساطة.. أخبرناه الخبر ثم اصطحبناه إلى البيت.. ولأكثر من ساعة ظل مصطفى يبحث عن ذلك الثعبان بلا فائدة..

مصطفى: يبدو أنه لا يوجد ثعبان هنا..

قلت: لعله ذهب وسوف يعود.

قال: لا.. لا يوجد جحر له في البيت.. البيت أثاثه بسيط وأركانه مكشوفة.. لا يوجد جحر.. فإما أن هذا الثعبان جاء يبحث عن شيء ولن يعود.. أو أنه في الأساس ليس ثعبانًا.

قلت له: كيف؟

قال: ربما جن من عوامر البيت.. فالجن العوامر يتشكل بشكل الثعابين كثيرًا..

قال هذا الكلام ونظر إلينا وكأنه يعرف كل شيء..

فقلت له: ربما فنحن نعاني من مطاردة منذ مدة..

فقال: احكِ لي.

أخبرته باختصار ما مررنا به.

مصطفى: اسمع.. أنا أعرف شخصًا قد يفيدك في مثل هذا الكلام.. تعالوا معي.. ربما يكون عنده حل أو نصيحة على الأقل.. إنه الحاج إبراهيم..

فوافقنا وخرجنا معه على الفور..

ذهبنا إلى الحاج إبراهيم في بيته.. رجل مسن أبيض الشعر واللحية.. قمحي البشرة عالي البطن.. يرتدي خاتمًا كبيرًا في يده اليمنى وآخر مثله في اليسرى.. بيته متواضع في الطابق الأرضي ويبدو عليه أن الناس تقصده كثيرًا.. قابلنا رجلًا وامرأة يخرجان من عنده يبدو أنهما كانا على موعد معه أيضًا.. قابل مصطفى مُرَحّبًا.. ونظر إلينا نظرة متسائلة..

فبادره مصطفى: معي أصدقاء يريدون المشورة..

قصصنا عليه ما رأينا فقال: أرى أن ثعبانكم هو جن.. ولكن لا بأس من أن نسأل الرمل فسنجد عنده الجواب لنعرف حتى ما سرُّ كل ما يحدث.. وهل هو عاكف أم أن الأمر أبعد من ذلك؟

فقلت له: الرمل؟ لا أنا لا أريد ذلك.. أنا لا أؤمن بهذه الأشياء.. ولن أستشير الرمل إنما جئنا لطلب مشورتك.. ولم أطلب غير ذلك وقد أشرت علينا برأيك شكرًا لك..

فقال مصطفى: مهلًا يا مازن إنما هو يريد المساعدة..

فقلت: أعرف.. ولكن أنا لا أريد الرمل ولا تلك الكهانات.. أنا أصلي ولا أريد شبهة تبطل أعمالي..

شعرت أن إبراهيم قد استاء من كلامي..

قال: هل تظن أني دجال أو أمارس الشعوذة؟ ما أحدثك عنه هي علوم جليلة..

- لو كانت علومًا جليلة لوجدتها تنتشر وتصنع في العلن ولا تمارس سرًا خلف الأبواب المغلقة..

- جرب أولًا ثم احكم بنفسك أهو سحر أم علم جليل..

كانت الظروف التي مررت بها تعصر ذهني وتشتتني في كل اتجاه.. شعرت أنه لو أن هناك احتمالًا ولو واحد بالمئة أن لا يكون هناك كُفر في الأمر فلا يجب أن أفوت الفرصة لأعرف الحقيقة.. أو ربما هكذا خدعت نفسي لأروي فضولي حول سؤال الرمل هذا.. مطمئنًا نفسي أنه ليس بكفر..

- حسنًا يمكن أن أرى وأحكم.

- تعال معي.. ولا تأت أنت يا مصطفى ولا كريم..

قام فأدخلني حجرة صغيرة ليس بها سوى منضدة ومرآة ومقعدين ومجموعة سُتُر على الجدران وركن به مكتبة كتب قديمة.. تلك الحجرة لها بابان دخلت من الأول ثم اجتزنا الغرفة وصولًا للباب الثاني.. فتحه فوجدت سُلمًا يقود إلى أسفل.. عشر درجات لأسفل ثم مساحة مظلمة لم أتبين معالمها.. اجتزناها إلى مساحة أخرى خلف ستار دخلتها فشعرت أني أحيا جزءًا من أسطورة.. إنها حرفيًا تشبه كهوف الأساطير.. فالجدران صخرية متعرجة بها أجزاء ناتئة وأجزاء منتفخة وأخرى غائرة.. الجدران في عمومها رمادية متداخل معها لون أسود.. كأن هذا الجزء من البيت محفور في جبل.. في الجدار أكثر من كوة موزعة على الجدران الثلاثة بكل كوة شمعة قصيرة قطرها لا يقل عن أربع بوصات.. تضيء بشكل جيد.. وفي منتصف الغرفة منضدة مستديرة خشبها قديم وكأنها صُنعت من ألف عام.. وعلى المنضدة شمعتان.. ومحفور في أحد الجدران أرفف عليها كتب مخطوطة ليست مطبوعة.. يبدو أنها كتب أثرية من مئات السنين.. ولفائف مخطوطات.. لا شيء في هذه الغرفة صُنع في العصر الحديث أبدًا..

أوقفني عند المنضدة حيث لا مقعد في تلك الغرفة.. وأضاء الشمعتين.. وذهب إلى أحد الأرفف وحمل كتابًا مخطوطًا.. لم يكن مجرد كتاب.. بدا أنه سفر من أمهات الكتب.. ثقيل ضخم تشبه أوراقه أوراق البردي.. وأتى بقطعة رخام وفحم وبخور من فوق أحد الرفوف وأشعل البخور ووضع الكتاب أمامي وقال: تعامل أنت مع الكتاب..

قلت: لا أفهم ماذا أصنع؟

- كل شيء مكتوب في الكتاب ولكن التزم بما هو مكتوب..

قال ذلك ثم التفت وخرج من الغرفة في لحظة.

نظرت إلى ذلك السفر الضخم فوجدته مكتوبًا بلغة عربية وقد كُتب عليه بخط يد كبير وواضح باللون الأحمر:

((كتاب الطالع الفلكي والرملي))

هذا الكتاب هو خلاصة ما وصل إلى أيدينا من:

كتاب الهشتمرج الهندي

كتاب البريدج الفارسي

علم سر العدد العربي

علم النقطة من الرمل الشريف

هذا الكتاب دائري متصل أوله بآخره في الحساب الفلكي.. أي ليس له بداية ولا نهاية

كان الكتاب في يدي له تأثير آخر.. شعرت بسحر رهيب.. سَحَرَ عقلي.. وأثار فضولي أكثر وأكثر.. شعرت أنه لا بأس من التجربة.. سأطرح سؤالًا في الكتاب وتأتي الإجابة من الكتاب.. هذا كل ما في الأمر.. هو كاللعبة لا استعانة بجن ولا انتظار لإخبارهم ولا تدخلهم..

✿✿✿

فتحت الكتاب فإذا مكتوب فيه بخط كبير:

"خُط في ورقة بيضاء ثلاثة خطوط طويلة على شكل نقاط.. بدون أن تعد.. احذف النقاط اثنتي عشرة نقطة اثنتي عشرة نقطة.. ما تبقى في النهاية هو ما نطق به سر العدد.. احفظه جيدًا واختر السؤال الذي تريد استشارة الفلك في الإجابة عليه.. واحفظ الحرف المكتوب أمامه فهو مفتاح الإجابة.. اذهب إلى الصفحة التي عنوانها الحرف مفتاح الإجابة ستكون هي بالنسبة لك رقم ١ وما يليها رقم ٢ وقم بعد الصفحات بعدد نقاط سر العدد.. فإذا وصلت للصفحة الأخيرة قم بعد السطور من أول الصفحة بعدد نقاط سر العدد.

انثر الرماد على هذا السطر الأخير واطرق عشر مرات على الكتاب هناك فقط ستجد الإجابة..

ولكن احذر.. إذا بدأت الطقس فيجب أن تكمله للنهاية.. ولا تسأل الطالع أكثر من سؤال واحد في الليلة الواحدة.. لا تخطئ في العد ولا تقطع الطقس مهما كانت الأسباب..

إذا لم تلتزم بهذه الشروط فأنصحك ألا تبدأ أبدًا".

كان الكتاب بين يدي ورائحة البخور وجو الغرفة كل ذلك يضعني في حالة نفسية متأهبة لأي شيء.. شعرت أن الأمر بسيط وطريقة الاستخدام سهلة وسريعة.. ولكن سؤالًا واحدًا.. فما هو السؤال الذي سأختار؟ قلبت الصفحة فوجدت الصفحة الأولى.. باب الحياة.. اثني عشر سؤالًا.. في اثني عشر سطرًا.. الصفحة التالية باب الموت نفس الشيء كالصفحة الأولى.. ويليهما باب المال وباب العمل وباب الزواج وباب الأبناء وباب السعادة وباب الرزق وباب الصحة.. كل صفحة اثني عشر سطرًا.. كل سطر سؤال وعلى رأس كل سؤال حرف هجاء وهو مفتاح الإجابة.. نظرت حولي فوجدت ورقًا أبيض وقلمين رصاص على رف خلفي.. تناولتهم وخططت الخطوط الثلاثة كل خط على سطر كامل في الورقة.. ثم بدأت بحذف النقاط.. وبقي في النهاية تسع نقاط..

هذا ما نطق به سر العدد إذن.. تسعة.

تحيرت كثيرًا في أي باب أسأل وأي سؤال أختار.. لم يخبرني الحاج إبراهيم كيف أحصل على السؤال المتعلق بما أعاني.. ولا أستطيع أن أخرج الآن لأسأله.. فلا ينبغي أن أقطع الطقس.

إذن لا بد لي أن أصل بنفسي لما أريد..

حسنًا ما الذي يهمني بشدة أكثر لأسأل فيه؟ هذه الفرصة ربما لن تُتح لي مرة أخرى.. لم أتحير أكثر.. قلبت سريعًا في الكتاب مرة

أخرى وحسمت أمري واخترت باب الموت.. كان السؤال الذي اخترته هو

(كيف سأموت؟)

ذهبت إلى مفتاح الإجابة وعددت تسع صفحات ثم عددت تسعة سطور.. كانت الصفحة خالية من أي كتابة.. إلا من مسحوق أسود على السطر التاسع.. بقيت خطوة الرماد.. لم أعرف أي رماد يمكن أن أنثره.. نظرت حولي لعلي أجد إبراهيم لأسأله.. لم أجده.. ولكن اصطدمت عيني بالفحم والبخور بجانبي الذي أشعله قبل أن يمشي.. حسنًا هذا هو الرماد.. ولكن أي كمية يجب أن أنثر؟ أخذت كل الكمية الموجودة ونثرتها على السطر التاسع.. وطرقت الكتاب عشر مرات..

وكلما طرقت على الكتاب طرقة.. كان خليط المسحوق والرماد يتحرك على السطر ويتخذ أشكالًا تبدو أكثر انتظامًا مع كل طرقة.. حتى الطرقة الأخيرة.. انتظم تمامًا مكونًا جملة.. كان هذا بالنسبة لي مفزعًا.. ولكن ليس أكثر من الجملة التي تكونت..

كانت الجملة واضحة تمامًا لا لبس فيها:

"ستموت وحيدًا خائفًا وسيلطخ دمك الأرض والجدار"



(٩)

خرجت من عند إبراهيم وأنا مأخوذ العقل.. لم أكد أسمع ما يدور حولي ولا أذكر حتى إن كنت سلمت عليه قبل أن أخرج أم أني خرجت من سردابه السري إلى الشارع مباشرة.. كانت كلمات ذلك الكتاب الغريب تدور في ذهني..

سر العدد.. الرمل الشريف.. باب الموت.. باب الرزق.. الهشتمرج.. البريدج.. ستموت وحيدًا.. ستموت وحيدًا.. سيلطخ دمك الأرض والجدار.. دجل وشعوذة.. كهف وبخور.. ستموت وحيدًا..

لم أستفق إلا وأنا أمام سيارة تضرب نفيرها بعنف ورجل يطل برأسه من نافذة السيارة موبخًا لي.. وكريم يشدني إلى جانب الطريق.. فقد كدت أموت تحت إطارات السيارة من غياب وعيي..

كنت شاردًا إلى درجة أني لم أجد مصطفى.. الذي أحضرني ولا بد أنه خرج معنا.. ولا أعرف أين ذهب.. قلت لكريم أريد أن أذهب إلى البيت..

في الثانية عشرة ليلًا وصلنا المنزل.. لم يكن طارق قد عاد بعد.. فدخلت غرفتي ونمت..

✿✿✿

كانت الساعة تدق الثانية والنصف عندما استيقظت على صوت غريب.. كان الصوت يأتي من خلال الفراش كأن أحدًا ما تحت السرير يتكلم.. كان الصوت همهمة ووشوشة.. وأصوات أنين وفحيح كصوت الثعابين.. استرقت السمع.. إنها لغة.. كلمات وجمل كاملة.. إنها تبدو كلغة عبرية.. يتكلم بها شخص يبدو على صوته الذعر واللهفة.. سريع ولكن اللغة واضحة.. وكان البرد شديدًا لدرجة التجمد رغم أنها كانت ليلة معتدلة الطقس.. توقف الصوت فجأة فهممت بالقيام لأجد شخصًا يقف بجوار فراشي ويحدق في وجهي في الظلام.. كان قريبًا حتى إني أكاد أشم أنفاسه.. كان الظلام ثقيلًا فلم أتبين وجهه.. هل هو كريم؟ أهو طارق؟ ولكن هذا الشعر المنتشر والصمت القاتل والتحديق في الظلام؟ يا إلهي إنها امرأة..

قلت: من؟

لم ترد.. رأيتها في الظلام تهبط إلى أسفل ببطء..

قمت مسرعًا وفتحت النور ونظرت تحت السرير.. ولكن لا شيء.. رفعت رأسي فرأيتها تخرج من الغرفة..

عدوت خارجًا من الغرفة.. فلم أجد أحدًا.. بحثت في كل مكان بلا جدوى..

فذهبت لأغسل وجهي.. وتوضأت وهممت أن أجلس قليلًا لأقرأ القرآن.. فإذا بطارق يفتح الباب ويدخل..

طارق: السلام عليكم.

كريم قادمًا من الخلف: وعليكم السلام أين كنت يا طارق؟

طارق: كنت مع بعض الأصدقاء في المقهى.. مازن أريد أن أتحدث معك في موضوع..

كريم: خير يا طارق؟

طارق: أريد أن أتكلم مع مازن فيما وصلنا له أنا وأنت.

كريم: طارق.. ليس هذا وقتًا مناسبًا.

طارق: بل هو الوقت الأنسب.. يجب أن يعرف الحقيقة.

قلت له: ما بك يا طارق ما الذي وصلت له؟

قال طارق مباشرة: يا مازن أنت صديق عزيز ويجب أن تذهب لشيخ ما.. لأن كل الظواهر التي نشكو منها هي بسببك أنت.

قلت: ماذا؟ إننا نعاني من نفس الأشياء معًا.. رأيناها جميعًا منذ سكنّا تلك الغرفة.. أم أنني مخطئ؟

قال كريم مترددًا: ليس بالضبط.

قلت مستنكرًا: ماذا؟

قال طارق وكأنه يصفعني صفعة عنيفة: كل الظواهر ارتبطت بوجودك.. ولم نشاهد أي شيء ونحن وحدنا.. دائمًا لا بد أن تكون متواجدًا.. وما إن تخرج أو تغيب أو تسافر حتى يختفي كل شيء.. هذه المعاناة مرتبطة بك أنت..

شعرت بدوار خفيف ولم أرد.

قال كريم: يا مازن أنت صديقنا ولن نتخلى عنك ولكن يجب أن تسعى لشيخ ممن يعالجون بالقرآن لأنه يبدو أن هذا الشيء مرتبط بك أنت.

حاولت أن ألملم شتات أفكاري.. نكست رأسي لأسفل ووضعت كفي على وجهي وكأني أخبئ وجهي منهما.. وقلت: هذا كلام فارغ.. الغرفة مليئة بالطلاسم.. والضوء يعبث بها.. وعاكف كان ساحرًا.. وكانوا يعرفون ذلك قبل أن نسكن ولم يكونوا يريدون إسكاننا بالغرفة لذلك..

كان كلامي يبدو مفككًا.. فلم أكن أستطيع أن أفكر.. كنت أحاول إثبات براءتي من الموقف بأي شكل.. كان صوتي مرتجفًا.. كنت أخشى أن يكون كلامهما صحيحًا.. وربما كنت أشك في ذلك أيضًا ولكني أريد دفع هذه الأفكار بعيدًا عني بأي شكل.. فلم أكن على استعداد لمواجهة المشكلة وحدي بدون عون.. كما لم أكن أريد أن أشعر أني سبب مشكلة صديقيّ وسوء أحوالهما.. ما أسوأ أن أكون سببًا في متاعب الآخرين..

لف الصمت تلك الغرفة دقائق حتى كسر الصمت رنين الهاتف..

ما هذا؟ الساعة الثالثة صباحًا.. من سيكلمني في هذا الوقت؟

إنها السيدة راندا.. هناك خطب ما إذن..

أنا: السيدة راندا كيف حالك؟

ردت راندا متلاحقة الأنفاس وهي في حالة فزع رهيبة: مازن كيف أنت.. اعتنِ بنفسك جيدًا.. نحن تحت هجوم عنيف..

قلت: ماذا تقصدين؟

قالت: التحقيقات أثبتت أن أبي لم يكن في بيته حريق ولا شموع ولا شيء.. وظهر شاهدان كانا مختبئين من يوم الحادث خوفًا.. فقد كانا يمران بجوار البيت ليلة وفاة أبي وقالا بأنهما سمعا صراخًا شديدًا مرعبًا لم يسمعاه من قبل.. وصوت تحطم زجاج وأصوات استغاثة.. ولم يكن في البيت زجاج مكسور.. ولا سبب واضح للحريق.. يا مازن نحن تحت هجوم أظن أنه انتقام.. إنه الشيطان نرجال مرة أخرى.

كل من حضر تلك الليلة اللعينة منذ شهور يتعرض للهجوم.. أنا وزوجي كما رأيتنا.. وأبي.. حتى نزار.. ولا أدري بشأنك ولكن يجب أن تأخذ حذرك.. لا أحد يعلم ما يمكن أن يحل بنا.. وداعًا يا أخي..

كانت كلمات راندا بمثابة الصفعة التي أيقظتني من كل الوهم..

نعم إن الهجوم الذي ينتابنا كان بسببي.. هذا حقيقي.. كل الهجوم يحدث في الثانية والنصف صباحًا.. إنه موعد الجلسة.. صديقاي لا يهاجمان إلا وأنا موجود.. إنه يطاردني أنا.. إنه المارد نرجال.. كان عاكف محقًا.. إنه ليس ساحرًا.. والطلاسم لا تعمل بهذا الشكل الذي ظننته.. والجن يسعى خلفي.. صوت تحطم الزجاج في بيت الحاج طاهر سمعناه في تلك الليلة.. ذلك الشيطان لم يمت.. لقد عاد.. واتخذنا أعداء له.. وهو الآن ينتقم.. لقد اتخذ الموعد الذي حددناه للجلسة موعدًا للانتقام.. إنه يتحدانا بالموعد الذي حددناه بأنفسنا.. فجعله موعدًا لانتقامه.. دار كل ذلك في رأسي للحظات.. وكأنها لحظات إماطة اللثام عن كل ما حدث..

لقد فهمت وليتني لم أفعل.. ليتني ظللت على ضلالي القديم..

زاد الدوار عليّ بشدة حتى إني لم أرد بكلمة على راندا التي أنهت مكالمتها وأغلقت الخط.. سقط الهاتف من يدي وسقطت على الأرض فاقدًا الوعي..

✿✿✿

مرت دقائق قبل أن يعود إليّ وعيي لأجد «طارق» و«كريم» بجواري.. قلت لهما أعتذر لكما عن كل شيء.. لم أكن أعرف ولم أقصد أن أتسبب لكما في فزع أو رعب.. لقد كان خطأي والآن فهمت.

قال كريم: لا تعتذر واعلم أني معك أينما ذهبت.. ولا خير في هذه الدنيا لو كنت في محنة وتخلى عنك الأصدقاء..

قلت له: أنت لست مضطرًا لهذا.. اعتنِ بنفسك وحياتك ومستقبلك.

قال: لا تفقد الثقة هكذا.. ولا تسعى لأن تحيا وحدك خوفًا من إزعاج الناس.. لا بد من معنى أو قيمة نثق فيها حتى تستقيم بنا الحياة.. وإن لم نثق أن الصداقة سوف تعطينا طوق نجاة فلن تبقى في الدنيا فسحة أمل أو ملجأ نلوذ به في الضيق.. أنا معك يا صديقي فلا تبتئس..

قال طارق: يا مازن ربما يعرفك كريم منذ زمن أما أنا فمعرفتي بك قريبة ولكن ليس هذا معناه أن تعتذر.. لا تعتذر فقد خُلقت الصداقة لأجل هذا.. من يتحملك إن لم يكن صديقك.. من يدافع عنك غير الصديق.. كيف نتخلى عنك.. لماذا نحن أصدقاء إذن.. هل الصداقة من أجل اللعب والضحك في الرخاء فقط.. الصداقة هي أن أغيثك إذا استغثت.. وأنبهك إذا غفلت.. وأحملك إذا عثرت.. وأشد عضدك إذا ضعفت.. ولن أضحك معك من قلبي في السراء إلا إذا كنت سأغيثك في لهفتك بكل جوارحي.. وأنجدك من غير أن تستنجدني..

قلت لهما: شكرًا لكما.

قال كريم: حاول أن تنام الآن لترتاح وفي الصباح سنذهب إلى شيخ يفتينا في الأمر.. أعرف شيخًا كبيرًا في المسجد الكبير بالميدان العام يأتيه الناس من كل مكان ليستفتونه.. سنذهب له..

❀❀❀

لم أنم طيلة الليل حتى الصباح.. كنت متعبًا ولكن لم يعرف النوم لعيني طريقًا.. وفي الصباح توجهنا إلى المسجد الكبير.. كان المسجد فارغًا إلا من عامل ينظف الأرض.. وشيخ كبير جلس أمام محراب المسجد يقرأ القرآن.. كان شيخًا كبيرًا مسنًا وقورًا تبدو عليه هيبة العلم.. لحيته بيضاء طويلة.. يجلس معتدلًا كأنه شاب فتي.. كان صوته بديعًا.. أخذني الصوت الجميل كأني خرجت من بحر متلاطم وهبطت على شواطئ الطمأنينة.. شعرت براحة نفسية عميقة.. وددت معها ألا أخرج من المسجد وأن أقيم به فترة أستريح فيها من العناء وأنعم بهذا الاطمئنان الذي يقر العيون.. شعر الشيخ بأننا نجلس بجانبه لا لنستمع وإنما لنسأل.. أنهى قراءته وتوجه إلينا.

الشيخ: السلام عليكم.. أهلًا بكم يا شباب.

رددنا: وعليكم السلام.. أهلًا بك يا شيخنا.

قال: هل أستطيع خدمتكم؟

قلنا: نعم.. لقد جئنا إليك في أمر نريد فيه الفتوى والنصيحة.

قال: تفضلوا.

قصصنا عليه القصص بالتفصيل.. كان يستمع إلينا ولا يُبدي أي انطباع أو انفعال.. كانت انفعالاته الخاملة تصيبني بالإحباط حتى إني ترددت أثناء الكلام وقررت ألا أكمل.. ولكن يبدو أن مجرد سرد المأساة يخفف من وطأتها أو ألمها في النفس.. فأكملت حتى مكالمة راندا في الليلة الماضية..

قال الشيخ: هل انتهيت من كل شيء؟

قلت: نعم.

قال: أولًا الجن لا تتلبس بالناس.. ولا تستطيع أن تؤذي.. يقول الله «إن كيد الشيطان كان ضعيفًا» ويقول «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان»..

فالجن لا تفعل ذلك.. كل هذا تهويل وأوهام نفسية.. يحركها الخوف والقلق.. ولو امتلك الجن هذه القدرة لما هنأ للإنسان عيش.. ولما كان لنا أعداء.. ولسُلّط الجن المسلم على أعداء المسلمين ففتحوا البلدان ودانت الدنيا لمن يُسخّر الجن..

قلت: يا شيخ أليس السحر موجودًا وحقيقيًا؟

قال: السحر موجود ولكنه يفرق بين المرء وزوجه.. ويوقع البغضاء بين الناس.. ويؤذي الساحر.. ولكن أن يفعل كل ما تحكيه فلا.. إن

الشيطان يوسوس وما إن تستعيذ بالله منه حتى يفر.. فلا تحزن وثق بالله ولا تخف من شيء.. فالخوف هو ما يعطيك الوهم ويجعلك تربط بين كل حدث وبين مخاوفك.. استعن بالله وحصن نفسك.. واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.. ولن يصيبك إلا ما كتب الله لك.. وليس الجن أو الشياطين..

قلت: ولكني رأيت ما رأيته وكان أصدقائي معي.

قال طارق وكريم: نعم نحن شاهدنا الأمر ولم نكن نعلم ما حدث معه من قبل.

قال: لن أشكك في صدقكم.. ولكن نفترض أنكم شاهدتم الجن متجسدًا.. هل مس منكم أحدًا؟

قلنا جميعًا: لا.

قال: هكذا هو الشيطان.. إنه يوسوس.. يزرع الخوف والشك.. ولكن لا يخاف منه إلا أولياؤه فاحرصوا على دينكم لأنكم تحتاجون إلى تقوية صلتكم بالله..

لم أرد بكلمة ولم أناقش أكثر من ذلك.. شكرته وانصرفت..

خرجت أنا وصديقاي ننظر بعضنا لبعض.. فقلت لهما: ولكني واثق مما رأيت.. إذا كان هذا هو قول الدين فلا بد أن شيئًا ما خطأ..

☆☆☆

(١٠)

كانت اختبارات نهاية العام قد بدأت.. وكنت أتنقل كل يوم في مكان.. أسهر طيلة الليل للمذاكرة مع الأصدقاء إلى وقت الاختبار ثم أعود لأنام طيلة النهار.. انقلب الليل نهارًا والنهار ليلًا.. كانت بعض الظواهر تصاحبني أحيانًا ويلاحظها من حولي ممن لا يعرفون عن الأمر شيئًا.. فيفزعون أحيانًا ويضحكون أحيانًا.. وكنت أختار أن أتجاهلها تمامًا عملًا بنصيحة الشيخ.. فهذه أوهام والجن لا يفعل ذلك.. وإلا لخاضوا الحروب مع البشر وفتحوا الفتوحات.. هكذا كنت أحدث نفسي دائمًا..

انتهت الاختبارات.. بالكاد اجتزتها.. وأخذت وقتًا وجيزًا للراحة قبل الانتظام في العمل الحكومي.. فقررت أن أذهب لراندا ورؤوف لأطمئن عليهما وأنقل لهما ما علمته من الشيخ الجليل..

وليتني ما فعلت..

اتصلت بالسيدة راندا لأحدد موعدًا للزيارة.. فلم ترد.. اتصلت بالهاتف الجوال فوجدته مغلقًا.. وكذا كان هاتف رؤوف.. ذهبت إلى بيتها بعد تردد.. طرقت الباب فلم يرد أحد.. كتبت رسالة وتركتها على الباب «حضرت ولم أجدكم».. ونزلت متفكرًا ترى هل سافرت إلى الصعيد.. هل سافرت أوروبا مرة أخرى.. هل هي تهرب من الناس ولا تريد لقاء أحد.. ربما ذهبت لتستجم بعد كل ما عانت..

قطع أفكاري البواب الذي سألني بشكل مفاجئ: هل أستطيع خدمتك؟

قلت: لا شكرًا.. كنت أقصد بيت الأستاذ رؤوف ولم أجدهم.. ألا تعرف متى سيعودون؟

قال لي: هل عدت قريبًا من سفر؟

قلت: نعم كنت في مدينة أخرى للدراسة.. لماذا وكيف عرفت؟

قال: لذلك أنت لا تعرف.. لقد مات الاثنان..

قلت صارخًا: ماذا ما الذي تقوله؟ متى؟

قال: ماتت هي منذ أسبوع.. وهو قبلها بشهرين.

إذن فقد مات رؤوف بعد آخر مكالمة لها معي بأيام قليلة..

فسألته: ما الذي حدث؟

قال لي: ليس عندي تفاصيل ولكن الأستاذ باهر مدرس الكيمياء الذي يسكن في الطابق الثاني هو من يعرف التفاصيل كلها.. لقد كان معهم نعم السند ولم ينقطع عنهم حتى دفنت السيدة راندا رحمها الله.

قلت له: هل هو موجود الآن؟

قال: نعم هذه سيارته.

فصعدت مسرعًا نحو الطابق الثاني وطرقت الباب.. فتح لي الأستاذ باهر بنفسه..

أنا: السلام عليكم.. الأستاذ باهر؟

باهر: وعليكم السلام.. نعم أنا.

أنا: أنا مازن.. كنت صديقًا لعائلة السيد رؤوف والسيدة راندا.. وكنت مسافرًا ولم أعلم إلا الآن بنبأ وفاتهما.

فقال: رحمهما الله..

قلت: كنت أطمع في دقائق من وقتك لأسألك عنهما ولن أطيل عليك.

تردد باهر لثوانٍ ثم قال لي: انتظرني دقيقة..

ودخل دقيقة ثم عاد فقال لي: تفضل.

جلست لا أعرف من أين أبدأ.. كان الحزن يشوش عقلي فما لبثت أن بكيت بشدة..

فقال لي: هون عليك.. الموت حق علينا جميعًا.

فقلت: نعم ولكن موتهما مفاجئ بالنسبة لي.. فهما لم يكملا الأربعين بعد.. ولكن هل كان بهما أمراض أم ماذا.. ما الذي حدث بالضبط؟

قال: اهدأ وسأحكي لك....

جلس باهر مطرقًا كأن شريط الذكريات يمر أمام عينيه.. كان ينظر إليّ حينًا وينظر في الأرض حينًا.. وينظر ناحية النافذة أحيانًا عندما تغلبه دموعه..

قال: كان رؤوف صديقي.. كنا نتقابل كثيرًا.. وكانوا يزوروننا ونزورهم.. ونسهر كثيرًا.. وأنا من أرشدته للشقة الخالية في هذه البناية عندما أراد أن ينتقل.. لم يكن رؤوف يعاني من أي شيء.. كان بكامل الصحة.. وسنه صغير على الأمراض المزمنة.. ولكنه فجأة بدأ يفقد وزنه بشكل ملحوظ.. قام بفحوصات عديدة.. في البداية شككنا أنه مصاب بداء السكري.. ولكن الأمر لم يكن كذلك.. أثبتت الفحوصات والتحاليل أنه لا يعاني من أي مرض.. ومنذ فترة بدأت تطارده كوابيس يومية.. ثم بدأ معها يشعر بصداع.. كان خفيفًا في البداية ثم بدأ يشتد ولا يستجيب لمسكنات.. كان يقوم في الليل مفزوعًا.. وأحيانًا كان يصرخ أثناء النوم وبعد أن يستيقظ.. حتى

أصبح لا يريد النوم خوفًا من الكوابيس.. وفي الأيام الأخيرة ازداد الأمر سوءًا.. اشتد عليه الصداع.. وأنهكته قلة النوم.. وبدا عليه الشحوب الشديد وانخفض وزنه بشكل أصبح يمثل خطرًا على صحته.. كما بدأ يقول كلامًا غريبًا لم نكن نستوعبه أو نصدقه.. وظنناه من أثر الإعياء الذي يعانيه..

أنا: ماذا تعني بالكلام الغريب؟ هل كان يهذي؟

باهر: لا ليس بالضبط.. كان يتحدث عن امرأة منتشرة الشعر شعثاء ترتدي ملابس سوداء ممزقة.. قال إنه كان يراها في كوابيسه ثم بدأ يراها في اليقظة.. كان إذا غفلت عينه يستيقظ على صوت مفزع ليجد هذه المرأة تقف بجوار فراشه تحدق فيه.. ثم تخرج من الباب.. يخرج وراءها فلا يجد أحدًا.. كان الأمر يبدو وهمًا.. حتى الليلة الأخيرة.. تبين لنا أنه صادق.

- كيف؟

- لقد رأتها السيدة راندا..

- ماذا رأت بالضبط؟

- قالت راندا أنها كانت جالسة على المقعد في الصالة.. عندما رأت فجأة امرأة سوداء مجعدة الشعر حمراء العين يبدو عليها الغضب.. مفزعة الهيئة.. ممزقة الملابس.. تخرج من غرفة النوم وتتوجه للشرفة.. وبعد ثوانٍ خرج خلفها رؤوف كأنه غائب العقل..

مُساقًا خلف المرأة.. وتوجه إلى الشرفة.. وقف قليلًا فنادت عليه راندا بصوت مرتفع.. فلم يرد.. وقف على السور ثم قفز..

نزلت دموع الأستاذ باهر وهو يطأطئ رأسه ويقول: رحمه اللّه كم اشتكى من تلك المرأة ولم أكن أعير تلك الشكوى اهتمامًا.. لم يكن عندي شك أنها هلوسة من شدة إعيائه وكانت راندا توافقني ذلك الرأي..

قلت له: هون عليك حتى إن صدقت شكواه لم يكن بيدك شيء لتفعله..

سكت قليلًا حتى مسح دموعه فسألته: والسيدة راندا ماذا حدث لها؟

قال: كانت راندا قعيدة منذ فترة بلا سبب طبي مفهوم.. أصيبت بالشلل فجأة والذي وصفه الأطباء بأنه يرجع لأسباب نفسية.. ولكن بعد أن توفي والدها وزوجها.. بدأت معاناتها الحقيقية.. كانت تتحدث أنها مستهدفة من كيان غامض.. لقد كانت تقول ذلك بإصرار ويقين وهي في كامل عقلها.. وبالطبع لم يصدقها أحد.. كان واضحًا لنا أن الأمر راجع إلى صدمة وفاة رؤوف.. خاصة وقد كانت تشكو نفس شكواه.. نفس المرأة الشعثاء ذات الملابس السوداء كانت تطاردها.. أصبحت شديدة التوتر والقلق.. وتحول الأمر إلى وسواس.. لم تعد تثق في أحد.. أصيبت بارتياب الاضطهاد.. وانتقلت للإقامة في مصحة للعلاج النفسي والعصبي.. أصبحت عنيفة مع الوقت.. كانت تنتابها

نوبات عصبية حادة في منتصف الليل.. كانت تصرخ بكل قوتها وتهذي بكلمات غير مفهومة.. إلى أن تأخذ جرعة مخدرة لتنام.. حتى ليلة وفاتها سمعتها الممرضة تصرخ ثم سكتت.. دخلت عليها الممرضة لينخلع قلبها مما رأت..

قالت الممرضة: لقد كانت ميتة وعلى وجهها نظرة فزع رهيبة كأنها رأت شيطانًا.. كانت النوبات العصبية قد زادت عليها في الأيام الأخيرة.. حتى أصبحت يومية.. وفي يوم وفاتها كانت تلح على أن أبقى بجانبها في الغرفة لأن المرأة السوداء تقف في الركن ولا ترفع عينيها من عليها..

سكت الأستاذ باهر قليلًا ونظر إليّ وأنا أبكي وقال: أتعرف؟ أشعر الآن أن ما كان ينتابها من نوبات لم يكن وهمًا أو مرضًا نفسيًا.. أشعر أنه كان كيانًا غامضًا فعلًا..

جففت دموعي والتفتّ له: لماذا تقول ذلك؟

قال: لقد اهتممت بالموضوع على نحو خاص بعد وفاتها.. انتبهت لشيء غريب لا أفهمه ولكني أعتقد أنه ذو دلالة خاصة..

قلت: ما هو؟

قال: لقد كانت شكوى رؤوف من امرأة ترتدي السواد.. وكانت نوبات الفزع تأتيه كل يوم بعد منتصف الليل حوالي الساعة الثانية والنصف.. حتى ليلة وفاته قفز بعد منتصف الليل.. ذهبت وبحثت

عن تقرير الطبيب الشرعي.. فوجدته قد حدد موعد الوفاة في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل..

ثم بدأت راندا تشتكي من نفس المرأة.. وقد ذهبتُ للمصحة النفسية بعد وفاتها وقابلت الممرضة وطلبت منها برجاء شخصي أن تريني ملفها لأطلع عليه.. وكانت المفاجأة الغريبة أن النوبات التي كانت تنتابها يوميًا في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل.. يا لها من مصادفة غريبة.. أليس كذلك؟

قلت: نعم.

قال: والأغرب أنه قد سُجلت ساعة الوفاة في الساعة الثانية وواحد وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل.

قلت له: ما الذي تقصده تحديدًا؟

قال: حتى هنا لم يكن هناك شيء يثير كثيرًا من الريبة.. فارتباطها النفسي بما حدث لزوجها قد يصنع تلك الصدفة.. ولكني عدت منذ يومين من الصعيد.. أتدري أين كنت؟

قلت: أين؟

قال: في بيت أخت السيدة راندا.. حيث يعيش أولادها.. زرتهم واطمأننت عليهم.. وأخذت أتجاذب الحديث مع زوج أختها.. حول الحاج طاهر.. قال لي: إن التحقيقات أثبتت أنه لم يكن هناك سبب لحريق.. ولا أثر لوجود أحد معه في البيت.. كما أن البيت لم يحترق..

إن الحاج طاهر احترق هو وبعض قطع الأثاث.. قطع متفرقة في البيت وليس حريقًا يلتهم البيت وينتقل من غرفة إلى غرفة.. وهناك شهود قالوا أنهم سمعوا صراخًا وتحطيم زجاج في البيت بعد منتصف الليل.. وهو نفس توقيت اندلاع الحريق.. فقد سجلت التحقيقات وملفات الدفاع المدني أن ساعة اندلاع الحريق كانت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل..

قلت له: عندك حق ليست هذه مصادفات.. ولكن لم يعد بأيدينا شيء نفعله.. رحمهم الله جميعًا.

✿✿✿

خرجت من عند الأستاذ باهر وأنا مبعثر المشاعر.. لا أكاد أفهم شيئًا.. هل هو فعلًا ذلك الشيطان نرجال يفعل بنا كل هذا.. هل جعلنا هدفًا له ويترصدنا واحدًا فواحدًا.. إذن فالكل في خطر.. يجب عليّ أن أنتبه أنا والباقون..

الباقون؟

لم يبق إلا أنا ونزار وسابق.. أين هؤلاء القوم ولماذا لم يأت أحدهم ليسأل عن هذه المرأة المسكينة.. بدأت ألملم شتات أفكاري ونفسي وتوجهت إلى مكان عمل نزار..

دخلت أبحث عنه ولم أجده.. لا في مكان التدريب ولا في الاستراحة ولا في غرفة الملابس.. يبدو أنه أنهى عمله باكرًا.. قابلت أحد المدربين خارجًا من صالة الألعاب فسألته: لو سمحت أين أجد الأستاذ نزار؟

قال: أتقصد كابتن نزار المدرب؟

قلت: نعم.

قال: للأسف يا سيدي البقاء للّه..

كانت تلك الصدمة عنيفة عليّ بما يكفي لأقف مكاني ولا أنطق بكلمة..

قال لي: يبدو أنك صديقه.

احتبس صوتي فأشرت له برأسي إشارة عليلة بالإيجاب..

قال: تعال معي لتشرب شيئًا.

أخذني الرجل من يدي كالطفل أمشي معه لا أملك إيجابًا ولا رفضًا.. جلسنا في الاستراحة وطلب لي كوبًا من الشاي.. وجلس أمامي يواسيني وأخذ يتكلم في أي شيء بعيد عن سيرة نزار.

قاطعته: هل كان نزار صديقك؟

قال لي: نعم كان صديقي المقرب.

قلت له: كيف توفي؟

قال: إنها قصة حزينة.. لم يكن بنزار أي علة.. كان يحرص على الرياضة ويبتعد عن أي شيء يضر صحته.. ولكن تغير كل هذا منذ فترة.. كان يأتي مرهقًا إلى العمل.. وكان يشكو من اضطرابات في النوم.. ثم بدأ الأمر يزداد سوءًا.. حتى انقطع عن العمل أيامًا.. ذهبت لزيارته فرأيته في أسوأ حال.. بدا شديد الشحوب.. هالات سوداء ثقيلة تحت عينيه.. سألته عن سر ذلك فقال إنه لا ينام إلا القليل جدًا..

كان يتكلم بغير تفاصيل عن ليلة وصفها بالمشؤومة.. تغيرت بعدها أحواله..

كان يستيقظ من النوم ليلًا ومهما كان نومه عميقًا فإنه يستيقظ في الثانية والنصف بعد منتصف الليل على صوت زجاج يتحطم.. فيقوم ليبحث في البيت ولا يجد شيئًا.. ويعود إلى فراشه ليجد أغطيته ووسائده على الأرض..

ومهما حاول أن ينام بعدها لا يعود إليه النوم إلا في الصباح.. تكرر هذا على فترات متقطعة.. ثم زاد حتى أصبح حادثًا يوميًا.. بدأ يأخذ حبوبًا منومة من دون فائدة.. في الثانية والنصف تمامًا يستيقظ.. حتى إنه لم يعد قادرًا على الذهاب للعمل.. كانت صحته متأخرة بشدة.. كان الأرق يأكل جسده.. أصبح هزيلًا بدرجة كبيرة وكانت تأتيه نوبات قيء عنيفة حتى لو لم يأكل.. إلى أن فقد شهيته للطعام تمامًا.. وفي الأيام الأخيرة ازدادت حدة نوبات القيء حتى كان يتقيأ دمًا.. لم يفلح معه العلاج.. ثم نُقل إلى مستشفى ليكون تحت

الملاحظة المستمرة.. توفي بعدها بستة أيام.. رحمه الله فقد كان نعم الصديق.

لم أتمالك نفسي فسقطت من عيني الدموع الصامتة على ذلك الرجل الطيب الذي وقف بجانب راندا.. وأنا وحدي الآن الذي أعرف ما الذي قضى عليه..

أنا وحدي أعرف السبب.. ولكني لا أستطيع أن أتكلم مع أحد..

شكرت الرجل على ضيافته واعتذرت عن إزعاجه.. واستأذنت في الرحيل.. وبعد أن خطوت بضع خطوات مبتعدًا عنه.. التفتّ له سائلًا: إذا سمحت سؤال أخير.. متى كانت ساعة وفاته بالضبط؟

قال: لقد كانت بعد منتصف الليل.. نعم لقد أنهيت الإجراءات بنفسي لاستخراج شهادة الوفاة.. كان موعد الوفاة هو الثانية والنصف بعد منتصف الليل..

قلت له: شكرًا..

وانصرفت.

الثانية والنصف بعد منتصف الليل..

ليس هناك مكان للصدفة في كل ذلك.. هذا هو الموعد إذن..

ذلك الموعد الذي حدده لنا شيطان.. وقرر أن يزورنا فيه كل يوم..

(11)

خرجت من عنده وكلي حزن وأسى على نزار.. ذلك الرجل الطيب.. لم يكن له ذنب فيما حدث سوى أنه أراد أن يساعد تلك الأسرة.. ذهبت إلى بيت الشيخ سابق لأسأل عنه لعله بقي معي بعد كل ما حدث.. ولعلي لست وحيدًا في ذلك الجنون.. سألت عنه فقيل لي إنه قد سافر منذ مدة طويلة ولم يعد حتى الآن ولا يُعرف هل سيعود أم لا.. أين سافر لا أدري.. لعله عاد إلى قريته يتحصن عند بحيرته التي أعطته مددها قديمًا.. المهم أني اطمأننت أنه بخير لم يؤذ برغم أنه كان أولى الحاضرين في تلك الليلة بالإيذاء.. المهم أني بقيت الآن من كل المجموعة.. وهذا يعني أني غالبًا الآن على موعد مع ذلك الشيطان.. لم يبق غيري.. قُضي على الجميع.. وبقيت وحدي.. أو بقيت أنا وسابق.. فماذا أصنع؟ هل أستسلم لذلك الشر المطلق؟ لا بد أن هناك من طريقة للتخلص من اللعنة.. سابق غير موجود للاستشارة.. فلمن أذهب؟

تذكرت فجأة ذلك الوليّ الذي حدثني عنه أمين قبل أن نذهب إلى راجي.. فقررت أن أبحث عن أمين لأعرف منه عنوان ذلك الرجل.. فربما أجد عنده الحل لما أنا فيه.. توصلت له بالفعل وأخذت منه عنوانه.. إنه في الصعيد.. قرية بعيدة.. يستغرق القطار إليها ما يقرب من الأربع عشرة ساعة ليصل إلى المدينة ثم يتوجب عليّ أن أركب مواصلة صغيرة للوصول للقرية.. ومواصلة ثالثة للوصول لبيت الشيخ.. فهو رجل زاهد يعتزل الدنيا والناس والمدنية.. وإن كانت هي لم تعتزله.. ويقصده الناس من كل حدب وصوب..

هذا معناه أني سأحتاج إلى أربعة أيام على الأقل في هذه الرحلة إن كُتب لي التوفيق في مقابلة الشيخ فور وصولي..

سافرت إلى حيث يقطن هذا الشيخ الكبير.. الشيخ مؤنس.. اسم علم في هذه البلدة.. ما إن سألت عنه حتى وجدت من يوصلني إليه بدون مقابل.. ويقول اذكرني عند الشيخ.. لآخذ البركة..

دخلت تلك الدار.. دار كبيرة أكبر مما تخيلت.. لقد تخيلته يقطن صومعة.. هذا ما كنت أفهمه من الزهد واعتزال الناس.. ولكن الدار كبيرة تكفي الألف.. فناء الدار مزدحم بالناس يجلسون يهمهمون ويذكرون الله.. ويأكلون الطعام.. موائد الطعام كثيرة.. ويجذبك القائمون عليها جذبًا لتأكل.. إن لم يكن للجوع فلأخذ البركة.. فقد بارك الشيخ ذلك الطعام.. وأنا لم أسمع من قبل عن مباركة الطعام هذه..

قلت لأحد الحضور: كيف بارك الشيخ ذلك الطعام هل قرأ عليه قرآنًا أم ماذا؟

قال: لا بل أكل من كل إناء لقمة وشرب من كل سقاء شربة..

هل هكذا يكون الشيخ قد بارك الطعام؟ أهو مقدس عندهم لهذا الحد؟ هذا ليس من الدين ولا البركة في شيء.. أسررتها في نفسي ولم أبدها لهم.. فقد قطعت مسافة طويلة ولن أتنازل عن عودتي بشيء له قيمة.

اجتزت ذلك الفناء ودخلت الدار فوجدت بهوًا يجلس فيه رجال يبدو من هيئتهم أنهم أفضل حالًا من هؤلاء بالخارج.. يبدو أن من بالخارج هم فقراء الناس ومريدو الشيخ من المعدمين والكادحين.. أما من بالداخل فهم من أصحاب المال وعلية القوم الذين جاءوا للعبادة والبركة أو المشورة.. ولا يتناولون أكثر من الشاي والقهوة..

كان هناك على اليسار ملحق جانبي لهذا البهو عبارة عن غرفة متسعة مساحتها تبدو نصف مساحة البهو.. ليس بينهما باب أو سُتُر.. تجلس فيه النساء.. وعلى اليمين غرفة ملحقة ولكنها مغلقة.. باب خشبي كبير ثقيل ومرتفع.. كان ذلك البهو أكثر هدوءًا بكثير من الفناء الخارجي المكتظ بالناس والطعام.. رائحة بخور تملأ المكان.. وجدت مقعدًا خاليًا فجلست.. وبعد أن استقر بي الجلوس.. بدأت أنتبه لصوت ينبعث من تلك الغرفة المغلقة على اليمين.. صوت جماعي يبدو فيه الانتظام كالنغم.. كأن من بالداخل ينشدون شيئًا..

يبدو أيضًا أن عددهم كبير.. كان الصوت يأتي من الداخل ضعيف ثم بدأ يشتد.. لا أدري هل ما أسمعه حقيقي أم أنني لا أتبين الكلمات بالفعل.. لقد سمعتهم يقولون «أوه أوه.. أوه أوه.. أو هوه هوه» لا أدري ما هذا.. كانوا يقولونها بانتظام وثبات ويُقطّعونها تقطيعًا كأنها إيقاع لحن معين يحفظونه جميعًا..

تناولت كوبًا من الشاي وأخذت أفكر.. هل هذه دار رجل زاهد.. هل كل هذا البذخ يصنعه رجل منقطع للعبادة.. من أين ينفق هذا الشيخ الزاهد والولي الصالح الذي باع الدنيا وأتى ليقطن هذا المكان البعيد؟ متى ينقطع للعبادة إذا كان هذا الصخب اليومي لا ينقطع؟ لم أفهم..

نظرت إلى رجل بجانبي يبدو عليه الهدوء والوقار كما يبدو عليه أنه معتاد على هذا المكان ويعرف من فيه بالكامل.. قلت له: ما هذا الصوت الذي يأتي من الداخل؟

قال: إنها الحضرة النبوية.

قلت: ولماذا يغلقون الباب؟

قال: إنهم الخواص.

قلت: وماذا يقولون لأني لا أفهم؟

قال: هذا ذكر الخواص يبدأون بالذكر المعتاد ومعهم الشيخ ثم تتجلى عليهم الأنوار العليا.. ويبدأون في ذكر الخواص.. ثم خواص الخواص.. ويصلون به إلى أعلى درجات التجلي والمكاشفة..

قلت: إذن متى ينقطع الشيخ للعبادة مع كل هذا؟

قال: إنه يترك كل هذا ويدخل الخلوة ما شاء الله ثم يخرج لنا.. فإذا خرج بعد الخلوة كانت له نفحات مباركة أكثر منه قبل الدخول.

قلت: إذن هو لا يعمل؟

قال: لا.

قلت: ومن أين له بهذه النفقات.. إنه يحتاج إلى أموال طائلة ليصنع كل هذا كل يوم.

قال: هو من عند الله.. وهي بركة من الشيخ.. فهو يبارك الطعام القليل فيكفي الجماعة الكبيرة.. إن الشيخ مؤنس من العارفين بالله أصحاب الكرامات.. وكثير ممن يقضي الشيخ حاجاتهم يأتون بالنفقات كرامة للشيخ.. وصدقة على مريديه..

قلت له: صاحب كرامات؟

قال: نعم كرامات.. إنه من أهل الخطوة..

قلت: كيف؟

قال: إنه يقول باسم الله.. ثم يخطو خطوة واحدة.. فيطوي الله الأرض تحت قدميه.. فيضع قدمه الأخرى في بلد آخر.. إنه كثيرًا ما يتركنا ويذهب إلى مكة يصلي ثم يعود ولا يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة..

قلت: وما أدراك أنه يذهب إلى مكة؟

فرمقني ذلك الرجل بنظرة حادة كأنه ينهرني على استنكاري واستفساراتي وقال: إن الشيخ لا يكذب.. إنه وليّ صدّيق.. وهناك أناس قابلوه في مكة وأكدوا أنهم رأوه يصلي معهم عندما عادوا.

قلت: حسنًا لا تغضب أنا لا علم لي بكل هذا وهذه أول مرة لي أزور وليًا..

فجأة قطع حديثنا صوت امرأة دخلت البهو ووقفت أمام الباب وقالت: مدد يا شيخ مؤنس.. هذا نذر عليّ أوفيه لك..

ظننت أن الخدم والمريدين سيقومون إليها يسكتونها.. ولكن لا شيء حدث.. الكل ينظر إليها ويستمع.. بينما سألها أحدهم: ماذا حدث يا سيدتي؟

قالت: منذ يومين كنت في طريقي إلى بيتي وليست هناك مواصلات.. سرت حتى انقطع بي الطريق.. لم يعد أحد حولي فخشيت على نفسي.. فأخذت أقرأ القرآن.. وفجأة ظهرت أمامي حية كبيرة ضخمة.. لو فتحت فمها لابتلعتني.. ورفعت رأسها عن الأرض حتى أصبحت أمام وجهي.. ففكرت ماذا أصنع.. لقد كدت أموت خوفًا.. حتى خطر ببالي شيخي مؤنس.. فقلت مدد يا شيخ مؤنس.. أدركني يا شيخ مؤنس.. أقسمت عليك أيتها الحية بالشيخ مؤنس ألا تؤذيني..

فتوقفت الحية كأنها استجابت لي.. وطأطأت رأسها على الأرض كأنها تنحني أمامي.. ولكني فوجئت بصوت قدم خلفي فنظرت فإذا به

الشيخ مؤنس.. يقف خلفي ويرفع يده.. لقد سمعني وأتاني لينقذني.. وأطاعته الحية.. رأيتها تُطأطئ رأسها طاعة له.. فأمسكها ولفها حول جذع شجرة.. وقال لها ارعي بأمان في أرض الله ولا تقربي أحدًا من مُريديّ.. لا تقربي أحدًا يستجير بي.. فأخذت الحية في الدوران حول الشجرة ثم هربت..

ثم التفت إليّ الشيخ وقال: اطمئني..

فقلت له: شكرًا لك يا شيخي قل لي ماذا أفعل لك؟

قال: لا أريد منك شيئًا.. ولكن اذبحي شاة وأطعميها للمريدين الفقراء وعابري السبيل الذين يأتون إلى داري هذ أفضل شيء تفعلينه.

فنذرت أن آتي اليوم لأذبح شاة وأطعمها لمريدي الشيخ..

فانطلق بعض الحاضرين: الله أكبر.. الله أكبر.. مدد يا شيخ مؤنس مدد.

فنظر إليّ الرجل الذي بجانبي نظرة انتصار وقال: أرأيت.. هذه كرامة أيضًا.. هذا الشيخ ولي من أولياء الله الصالحين..

نظرت إليه وهززت رأسي بالإيجاب.. وسكت.

بعد قليل جاء إليّ أحد العاملين في هذه الدار سائلًا.. أي خدمة يا أستاذ؟

قلت له: أريد الشيخ في مشورة.

قال: هل تريده في فتوى أم أن هناك طلبًا وخدمة؟

قلت له: لا أعلم.. عندي مشكلة سأحكيها له وهو يرشدني لما يتوجب عليّ فعله.

قال: حسنًا.. إذا كانت مشورة وفتوى فلا شيء عليك.. وإذا كانت حاجة سيقضيها لك فيجب عليك أن تترك صدقة قبل الدخول لتحل البركة وإذا قضيت حاجتك يجب أن تذبح لمريدي الشيخ إذا كنت تستطيع.

قلت: موافق.

قال: تعال معي.

✿✿✿

أدخلني ذلك الخادم إلى غرفة ملحقة بغرفة الشيخ مؤنس.. ليس بينهما حجاب.. قال لي: اخلع حذاءك وأنت تدخل على الشيخ وانتظر دورك عندما ينتهي الشيخ من قضاء حاجة الذي بين يديه الآن.. وإذا جلست أمامه فقبل يده..

كان يجلس بين يدي الشيخ مؤنس رجل قصير بدين.. جاءه بقماشة فيها عظام غريبة رقيقة كعظام الدجاج.. وقال له: أريد منك ختم هذه العظام لي يا مولانا..

فأمسك الشيخ مؤنس بالعظام وقلّب فيها النظر ثم قال له: ارم هذه العظام.. فلا نفع منها..

قال: كيف أرميها يا مولانا؟ لقد كلفتني الكثير!

مؤنس: الخطأ خطؤك.. فعظام الهدهد لها طرق وطقوس لاستخراجها.

سمعت كلمة عظام الهدهد ففزعت.. وانتبهت للكلام.

قال الرجل للشيخ: إذن علمني مما علمك الله.

قال الشيخ مؤنس: أهم شرط من شروط استخراج عظام الهدهد أن لا يستخرجه مسلم.. لأن المسلمين لا تطيعهم الأرواح والقوى الكونية.. ولا تشتريه من مسلم..

ثانيًا يجب أن تشتريه حيًا.. وتشتريه معاكسًا.. أي أن الرجل يشتري أنثى والأنثى تشتري ذكرًا.

ثالثًا لا يجوز ذبحه باتجاه أي قبلة.. الكعبة أو بيت المقدس.. ويجب أن تذبحه أنثى بكر.. ويكون ذبحه من الخلف.. أي تمسكه الفتاة بيديها وتضعه خلف ظهرها وتذبحه.. ويجب أن لا تسقط نقطة دم واحدة منه على الأرض.. ويجب أن يُذبح بخنجر من ذهب عليه الرموز الأرامية المباركة.. ويُذبح بين أربعة قبور.. قبر مرتفع وقبر منخفض.. وقبر قديم وقبر حديث.. وهناك دعوات وعزائم.. ثم بعد ذلك يُطبخ ليلًا.. بحيث لا تراه شمس.. ثم تُستخرج عظامه.. فتختار

الجناح الأيسر.. ثم اجعله فوق البخور.. ثم ائتني به لأختمه لك بما تريد..

جلس الرجل حزينًا وقال: ألا يوجد حل يا شيخ مؤنس؟ الشروط صعبة وأنا أحتاجه..

قال: الحل أن تترك فعل الصابئة.. أنت تختار الأصعب والأخطر.. وربما لا يملك لك ما تريده غير واحد.. فلا يوجد قطبين للصابئة في زمان واحد.. وقطبهم الآن في تركيا وليس في العراق.. ولا تضيع وقتي يا عبد الله أكثر من ذلك..

قال: إذن بدون عظام الهدهد ما الذي سأحتاجه من أدوات؟

قال مؤنس: ائتني بأثر عدوك واسم أمه.. واذبح شاة للمريدين.. وإن كان هناك طلبات أخرى سأخبرك بها في حينها..

فقام وقال: حسنًا سأحضر هدهدًا آخر.. وآتي لك.. فإن لم أستطع سأرى موضوع الأثر..

قال هذا الكلام بصوت منكسر حزين وهو يرتدي حذاءه ثم خرج.

أشار إليّ الخادم أن أقوم لأجلس بين يدي الشيخ مؤنس..

جلست ولم أقبل يده فقال: أهلًا بك.. هل أكلت؟ وأخذت واجب الضيافة في داري؟

قلت له: نعم الحمد لله.. بوركت يا شيخ مؤنس.

قال: ما حاجتك؟

فقصصت عليه قصتي كاملة.. واستمع لي بآذان مصغية ثم قال: الأمر حقًا جلل.. والقصة طويلة متشعبة ويصعب أن تحدد شخصًا بعينه بمجرد الرأي..

- وما العمل إذن؟

- لا بد من المكاشفة.. سنستعين بالله ونرفع ستر الغيب عن الأمر..

- كيف؟

- سنفتح المندل.

- لا أفهم.. ماذا سنفعل؟

- تعال معي.

قمت معه فدخلنا غرفة خالية لا شيء فيها إلا ثلاثة مقاعد كبيرة ملتصقة بالجدار الأيمن للغرفة.. وأمامهم على الجدار المقابل مرآة كبيرة طولها يقرب من المترين.. تبدأ من الأرض.. وتقف على عجلات.. لها إطار خشبي أنيق منقوش عليه نقوش غريبة.. محفورة في الخشب وبارزة.. عندما اقتربت اكتشفت أنها طلاسم.. وبجوار المرآة حامل خشبي أنيق على قمته شمعة كبيرة.. وتحتها موقد بخور..

تركني ثم عاد بعد قليل ومعه طفل صغير سنه قرابة السبع سنوات.. أجلسه أمام المرآة التي جرها إلى منتصف الغرفة هي

وحامل الشمعة.. ثم أشعل بخورًا خفيفًا.. ولكن رائحته نفاذة.. وأضاء الشمعة.. ثم أطفأ النور..

شمعة واحدة كبيرة وغريبة.. لم أر مثلها من قبل.. حمراء اللون.. وعليها طلاسم محفورة.. وموضوعة في قاعدة زجاجية.. أضاءها فكان ضوؤها مذهلًا.. أضاءت الغرفة.. ولكن......

لم يكن هناك انعكاس للنار المشتعلة في المرآة.. هذا الضوء المبهر الذي أضاء الغرفة بالكامل ليس له أي انعكاس في المرآة.. نظرت خلف المرآة فوجدت الشيخ مؤنس يمسك ريشةً ومدادًا غريبًا ويرسم شيئًا على ظهر المرآة.. إنه طلسم.. بل عدة طلاسم..

ثم قال لي: سينظر ابننا هذا في المرآة وسنتلو عليه القرآن.. لتنكشف عنه الحجب بإذن الحي القيوم.. ثم سنسأله فيما رأى.. ولا تخش شيئًا فهو طفل والأطفال طاهرون وأبرياء ولا يكذبون.. ولكن اجلس أنت بجانب المرآة واجعل حافتها على يسارك..

بينما جلس الطفل الصغير مواجهًا للمرآة.. ناظرًا إليها ثم وضع الشيخ على عينيه عصابة وربطها.. وبدأ يتلو آيات من القرآن.. لم يكن يتلو آية واحدة كاملة.. كان يقطع بعض الآيات في منتصفها ليبدأ آية أخرى.. ليقطعها هي الأخرى في منتصفها ويبدأ غيرها.. كان واضحًا لي تمامًا أنني أخضع لطقس من طقوس السحر الأسود.. ولكني كنت مستسلمًا.. فلم يكن لي ملجأ وقتها.. وأريد أن أعرف أي شيء.. أي طريقة لإزالة اللعنة التي تطاردني..

انتهى الشيخ مما كان يفعل.. ورفع العصابة عن عين الطفل.. نظر الولد الصغير بفزع إلى المرآة.. بينما شعرت أنا أنها تهتز.. حتى بدأت ترتج بشدة.. وصرخ الطفل صرخة عنيفة.. فأطفأ الشيخ الشمعة وفتح النور فورًا..

سقاه الشيخ كوبًا من الماء.. وقال له بغلظة لا يُفترض أن تكون مع طفل صغير..

مؤنس: قل لي تفصيلًا ماذا رأيت؟

قال بفزع وهو يرتعش: لقد رأيت خمسة أشخاص على صدورهم كف مرسوم بالدم..

ورأيت رجلًا على يديه علامة..

و رأيت حُجرة بها كتب كبيرة..

ورأيت عين ماء وصخورًا وجسرًا ونارًا وطفلةً..

ثم رأيت يدًا ممسوخة تخرج من المرآة لتذبح هذا الرجل..

وأشار إليّ..

كانت كلماته بالنسبة لي مبهمة.. ولم أفهم أي شيء.. غير أن يدًا تذبحني.. وكان ذلك كافيًا بالنسبة لي لإثارة الذعر..

قال الشيخ مؤنس: هل تستطيع وصف الأشخاص أو الرجل الذي في يده علامة؟

قال: لا.

- هل هناك شيء آخر؟

قال: لا.

فقال له: انصرف.

فتحرك الطفل نحو الباب ثم التفت إلينا وقال: لقد كانت الغرفة رمادية الجدران وعلى الجدار لوحة سوداء..

ثم استدار وانصرف..

قلت للشيخ: أنا لم أفهم أي شيء غير أني أُذبح على يد مسخ.

نظر إليّ الشيخ مؤنس طويلًا ثم قال: لقد تم وضع علامة عليك ومعك أربعة أشخاص.. يبدو أنهم الحضور في ذلك اليوم.. لقد تمت التضحية بكم كقربان من أجل النجاة..

قلت له: لم أفهم.

- هذا المارد نرجال هدد شخصًا ما بالقتل.. فساومه بكم كقربان مقابل حياته.. ووضع على الضحايا علامة لتكون دماءكم فدية له..

- ومن ذلك الذي وضع علينا علامة وكيف وضعها؟

- هو رجل على يديه علامة مميزة.. عليك أنت أن تعرفه.

- ثم؟

- إما أن تسوي معه المسألة أو......

- لا تقف الآن.. أخبرني ما العمل..

- أو تقدم قربانًا لتفتدي نفسك من اللعنة.

- قربان؟ كيف؟

- لكي تتخلص من هذه اللعنة يجب عليك التضحية بدم.

- ماذا؟

- دم.. الشروط واضحة تمامًا.. نطقت بها المرآة.. يجب أن تحمل ضحية.. نفس بريئة.. وتذهب في مكان فيه بحر بين جبلين.. ستجد هناك بوابةً وجسرًا.. لن يظهرا حتى تقف هناك في ليلة جمعة.. والقمر بدر.. وتقرأ عزيمة.. ولا ضوء حولك.. وتقف في الموعد الذي قلت عليه الثانية والنصف بعد منتصف الليل.. وعليك بعبور الجسر ثم البوابة.. ثم تذبح ضحيتك أمام النار.. وقبل الذبح ستضع في فمك قطعة حديد وتضغط عليها بأسنانك ولا تفتح فمك مطلقًا.. وتضع كفك في الدم وتلطخ به صدرك ووجهك.. ثم تعود لتخرج من البوابة إلى الجسر.. فإذا ما تُركت تمر بسلام تكون اللعنة قد انحلت..

- وهل يمكن أن أفعل كل هذا ولا يتركني أمر بسلام؟

قال: ممكن.. ستخرج من البوابة فلا تجد الجسر.. وستكون النهاية.

- أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك.. أنت تطلب مني أن أقتل نفسًا.

- نعم.. يجب أن تكون نفسًا بريئة.. بالتحديد طفلة غير بالغة.

- ولماذا يجب أن أضحي.. لماذا أذبح نفسًا أو حتى حيوانًا؟

- هكذا هي البوابات بين عالم الإنس والجن.. قد تعبرها بسهولة.. ولكن لا تستطيع العودة منها إلا بدم.

- لا.. لا أستطيع.. سأعثر عليه وأسوي معه المسألة.

- حسنًا يا بني.. ولكن من الأفضل أن تسرع فلم يعد لديك الكثير من الوقت.. إنه في أثرك.

نظرت إليه آسفًا وأنا أكاد أبكي من الخوف والهم.. ثم خرجت.

✿✿✿

خرجت من عند الشيخ مؤنس.. وأنا على أسوأ حال.. كنت أشعر بصدمة نفسية عنيفة.. فلم أتوقع أن يُطلب مني في يوم من الأيام طلب كهذا.. أأقتل نفسًا بريئة؟ هل يمكن أن تكون هذه نصيحة رجل دين؟ هل يمكن أن يصل بي الأمر إلى هذا الحد؟ إنها لعنة حقيقية..

سمعت نداءً من الخلف: يا أستاذ..

نظرت خلفي فوجدت شابًا يافعًا مهندم الهيئة.. قدم إليّ وقال: هل لي أن أتحدث معك قليلًا؟

- تفضل..

- تعال معي نمشي قليلًا بعيدًا عن المكان.

ابتعدنا قليلًا قبل أن يبدأ بالحديث قائلًا: أنا صلاح الدين.. مهندس.. أنا من العاصمة.. وأنت؟

- وأنا مازن.. صيدلي.. من العاصمة أيضًا..

- سمعت حوارك مع الرجل المُريد بالداخل.. وفهمت أنك أول مرة تأتي للشيخ.. ويبدو أنك على جهل تام بأمور الطرق الصوفية.. ورأيتك تخرج من عند الشيخ حزين الوجه..

- لا أبدًا أنا أتيت إلى هنا طلبًا للمشورة والنصيحة من الشيخ بعد أن انقطعت بي السبل.

- هل أكلت؟

- لا.

فدعاني إلى الطعام في مطعم ليس ببعيد حتى يتسنى لنا الحديث..

جلسنا إلى الطعام ففاجأني بقوله: أيًا كان الشيء الذي أتيت لتسأل عنه الشيخ.. فقد قصدت الشخص الخطأ.

- لماذا إنه رجل مبروك.. يحظى بحب الناس وثقتهم.

- أتظن حقًا أنه شيخ وليّ؟

- بصراحة لا.. لم أقتنع.. ولكن إن لم يكن كذلك فما هو إذن؟

- إنه ساحر.

- كيف ذلك؟

- أنا لي عشر سنوات الآن أجوب البلدان أتتبع السحرة والأولياء.. الدجالين والمشعوذين.. وأصبح عندي الشيء الكثير من هذا العلم.. فهمت كثيرًا مما لا يفهمه الناس.. ولا يصح إعلانه على العامة وإلا لقتلوني انتصارًا لمشايخهم.

- اشرح لي أكثر.. هل الصوفية دجل؟

- لا.. ليست الصوفية بدجل..هي سبيل إلي الله كغيرها من السبل.. ولكن هناك من شيوخ بعض الطرق الصوفية سحرة يتعاملون مع الروحانيين.. ويستغلون جهل الناس وحاجتهم.

- ومن هم الروحانيون؟

- هم رؤساء عشائر الجن.. يأتي الواحد منهم إلى الشيخ المبتدع الذي يصل إلى مرتبة القطب ويوهمه أنه ملاك.. وأنه مُرسل إليه من الله ليخبره أن الله قد أعفاه من العبادة وفرائض الشريعة فلا صلاة عليه ولا صيام.. وأنه وليّ من الأولياء.. حتى إذا ما صدقه وأطاعه..

يطلب منه قربات.. قربات شركية وكفرية.. فإذا ما صنعها له الشيخ.. أصبح الروحاني وعشيرته خدمًا له.. يفعلون له الأعاجيب.. ويأتيه الناس فيقضي لهم الحاجات بالاستعانة بالجن.. وهم من يلفقون للشيخ كراماته حتى يضلون بها الناس.

- أنا لا أصدق ما أسمع!

- سأثبت لك.. هل تعلم أن من شروط الجن على المشايخ ألا يصلون العصر والجمعة؟

- لا.

- هذه أول علامة تعرفها في الأولياء والعارفين.. إذا وجدته يمتنع عن صلاة العصر والجمعة فاعلم أنه ساحر..

- وهل يمتنع الشيخ مؤنس؟

- طبعًا.. دائمًا يقول أنه سيذهب في العصر والجمعة إلى مكة يصلي ثم يعود.. وطبعًا هم يصدقون أنه من أهل الخطوة.. ويذهب إلى مكة.

- وكيف تعرف أنه ليس بمكة؟

- الأمر واضح ولكن الناس تصدق ما تريده عقولهم أن يكون حقيقة.. الصلاة في مكة تُقام قبل الصلاة هنا بساعة ونصف.. فلماذا يذهب ساعة صلاة العصر هنا وليس بتوقيت مكة؟ ولماذا العصر والجمعة؟

- ولكنهم يرونه يرفع قدمه ويخطو خطوة فينتقل إلى بلد آخر ويأتي من يقابله ويحكي أنه قابله..

- لا مانع.. فالجن يستطيعون نقله في ثانية إلى أي مكان بعيدًا عن أعين الناس.. إن هذه الخطوة التي يخطوها يضع بها قدمه على يد الجني الذي يخدمه.. لا تنخدع بهؤلاء.. ولا يوجد من يقول أنه رآه.. هؤلاء كذبة أفاقون.

- ولكن بيته مليء بالناس الفقراء.. يطعمهم الطعام.. ومجلس ذكر الله بالداخل.

- هذه هي الخديعة.. ليس إطعام الطعام هو الشرع.. وكل بر وفاجر ولص وقاتل يمكنه إطعام الطعام.. وليست العبادة هي إطعام الفقير.. فلا بأس عندهم من أعمال الخير.. لن يضره في شيء بل هو من وسائل جذب الناس إليه.. أما ما تسميه مجلس ذكر فهو دليل على كلامي..

- كيف؟

- هل يستقيم في عقلك أن يكون ذكر الله هو أن تجلس فتقول «الله.. الله.. الله»؟

- لا أعرف.

- بل تعرف.. إنها بداهة عقلية.. فذكر الله هو تسبيحه أو حمده.. أو استغفاره.. أو تكبيره.. أو دعاؤه.. وليس ذكر اسمه مجردًا بغير

دعاء أو حتى أي جملة مفيدة.. ثم هل سمعت ما يخرج من غرفة الخواص؟

- نعم هو ذكر الخواص.

- لا بل هو ذكر الجن.. يبدأون بقول الله الله الذي هو ليس بذكر لله أصلًا.. وليس في قول لفظ الجلالة مجردًا أي ثواب.. ثم يبدأون في رفع حرف الألف ويقولون لله لله.. ثم يتطورون فيرفعون اللام ويقولون «لهُ لهُ».. ثم يرفعون اللام الأخرى وصولًا إلى ذكر الجن.. «هوه هوه».. وهو تقرب إلى الجن ويخدعون الجهلة من الناس بأنه ذكر الخواص.. ثم يتجلى الشيخ الأفاق.. وتتجلى غفلة الناس.. حيث يدعي الشيخ الفاجر أن النبي محمد قد حضر.. ويسمونها الحضرة النبوية.. وأحيانًا يسمونها الحضرة الإلهية.. ولك أن تتخيل من يزعمون حضوره في تلك الحضرة الإلهية.

- لا أصدق هل نحن نحيا في عالم يعج بالسحرة إلى هذا الحد؟

- اسمع.. إذا رأيت الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء.. وهو مخالف لشرع الله مبتدع.. فاعلم أنه مؤيد بشيطان..

ليست الكرامة هي دليل صحة العقيدة أو الولاية.. هذه خدعة الجهلة والضعفاء.. يرونهم يقترفون الفواحش والمعاصي التي تقرب إلى الشيطان.. ويبجلونهم ويعتقدون أنهم إلى الله أقرب..

- أتظن أني لو سألت الشيخ فلن ينفعني؟

- من أتى ساحرًا فصدقه فقد كفر.. ما الذي يمكن أن يقدمه لك ساحر.. سيجرك إلى الكفر جرًا.. لا تجعل أي محنة تدفعك للشرك بالله.. الجن لا يخدم الإنس إلا بالكفر.. سيطلب منك قربانًا ولا شك.

- وما أدراني بقرابينهم؟

- هذه الأمور واضحة ولن تختلط على رجل متعلم مثلك.. احكِ لي ما حدث عند الشيخ.

فقصصت عليه ما حدث.. فقال: هل كانت الشمعة التي رأيتها حمراء؟

- نعم..

- عليها طلسم؟

- نعم.. بل طلاسم.

- إنها هي إذن.. إنها شمعة هاروت وماروت..

- وماذا إذن؟

- لا عليك كنت قد سمعت عنها.. لم أكن رأيت أحدًا يستخدمها من قبل.. إنها نادرة وليس كل ساحر قادر على استخدامها..

- لم تقل لي ما رأيك فيما قاله لي مؤنس؟

- هو يطلب منك أن تقتل نفسًا.. وتقربها قربانًا للشيطان.. وتعبر بوابة بين عالمينا.. عالم الجن وعالم الإنس.. هل بعد كل ذلك تسأل؟ كل هذا شرك وكفر.

- ولكن اللعنة ستنحل.

- غير صحيح.. فاستدراجك إلى الكفر عمل أصيل للشيطان.. ليس له علاقة برغباته الأخرى أو انتقامه.. إنها فقط فرصة.. فقتلك وأنت كافر خير عنده من قتلك وأنت مؤمن.. ثم هو يجرك إلى لعنة أكبر.. إنها لعنة قتل النفس البريئة بغير نفس.. إنها لعنة لا تنحل بقرابين الأرض.. ستلقى بها الله..

سكتُّ ونظرت إلى الأرض حيران..

- ألم تقل إنكم كنتم ستة في تلك الليلة؟

- نعم أنا ونزار والحاج طاهر ورؤوف وراندا وسابق..

- فكيف كانوا خمسة هم من وضعت عليهم العلامة؟

نزلت عليّ كلماته كصفعة قوية شعرت معها بالدم يتدفق إلى رأسي بعنف.. كيف لم أنتبه لذلك؟

يا ربي.. هذا معناه أن أحد الحضور هو من وضع العلامة..

لم يبق غيري أنا وسابق.. نعم إنه سابق.. لقد كان على يد سابق علامة بارزة.. إنها وحمة سوداء كبيرة على ظهر يده.. أذكر يوم

رأيتها.. وظننتها من أثر مصافحته للجنية.. وقد سافر ولم نعرف له أثر.. لقد مسح أيدينا بزجاجة مسك.. إنها العلامة..

- إذن ابحث عن سابق.. فيمكنك أن تحل معه المسألة وتعفي نفسك من الكفر لفك اللعنة..

نعم هذا هو الحل.. سأعثر على سابق ولو جئت به من قاع بحيرته في القرية..

(١٢)

انقضت عدة أسابيع وأنا أبحث عن سابق في محاولة يائسة للفكاك من اللعنة ولكن بلا جدوى.. لم أكن أصدق نفسي.. هل سابق ذلك الرجل الذي وثقنا فيه كل هذه الثقة.. هو من يخدعنا ويلعننا تلك اللعنة.. أيُعقل أن ينخدع الإنسان بهذا الشكل؟ وكيف لي الآن أن أجده؟ لقد سافر.. هرب أو مات أو ذهب إلى الجحيم.. لم يعد يمثل مكانه فارقًا.. لقد لعننا وذهب..

بدا لي البحث عن سابق بعد الآن مضيعة للوقت فاتخذت قرارًا غريبًا.. لم أكن أخطط لما سأفعل ولكني قررت ألا أستقر بمكان.. ألا أترك فرصة لذلك الكيان أن يستمر في مطاردتي.. كنت مرعوبًا من أن ألقى مصير رؤوف أو راندا أو نزار أو الحاج طاهر.. كنت قد استلمت عملي بالتكليف الحكومي.. كنت أذهب إلى عملي مجهدًا فلم أكن أنام طيلة الليل.. وكنت أنام نهارًا بعدما أنتهي من عملي.. وما إن

يأتي الليل حتى أخرج إلى الشوارع أجلس في المقاهي حينًا وفي المساجد أحيانًا.. أذهب إلى أفراح لأشخاص لا أعرفهم.. أرمي بنفسي في أي زحام.. كان وجودي بين الناس يزيل الرهبة عن قلبي.. كنت أهرب منه وسط الزحام.. وربما كنت أهرب من نبوءة الطالع.. لا أريد أن أبقى وحيدًا ولا خائفًا.. كنت أهرب من أن تحصرني الجدران في الساعة الثانية والنصف ليلًا.. لن أسمح له بأن يلطخ بدمي الأرض والجدار.. كانت هذه هي طريقتي لكسر نبوءة الطالع.. كانت الحياة مملة ورتيبة وغير منتجة.. وبدأت أشعر بعد فترة أني بلا حياة.. أنا هارب من ثأر ليس لي فيه ناقة ولا جمل.. حتى ذلك الموعد لم أكن أنا من حدده.. حدده سابق الذي سافر ولم نعد نعرف له طريقًا.. أنا لست مذنبًا.. لماذا يمكن لحياتي أن تُدمر بهذا الشكل.. هل سأستمر هكذا إلى الأبد.. لا بد من وضع نهاية لهذه الحال وإلا فستتحول الحياة إلى لا شيء.. لا شيء.

كانت ليلة شديدة البرودة.. وكنت أمشي وحيدًا كالعادة في نهاية الليل ولم يكن في الطريق غيري.. كنت أمر على الطرق لا أجد لنفسي ملجأ غير الأرصفة طوال الليل حتى قبيل مطلع الفجر.. فأذهب إلى أقرب مسجد لأصلي وأرتاح قليلًا قبل العمل.. حينما وجدت من يناديني من سيارته..

- مازن.

- من؟

- أنا هشام ألا تذكرني؟

إنه هشام الذي كان جارًا لرؤوف وراندا في الطابق الثالث في شقتهما القديمة.

- بالطبع أذكرك.. أهلًا بك.

- لماذا تسير وحدك؟ تعال أوصلك.

- لا شكرًا.. أنا أتمشى قليلًا.

- ولكني أريد أن أتكلم معك.

فركبت معه السيارة..

قال: لماذا لا تأتي لزيارتنا؟

- ومنذ متى ونحن نتزاور؟

- ولم لا؟

- لأني لا أريد أن أدخل تلك البناية مرة أخرى.

- لماذا؟

- لأنها تحمل بالنسبة لي ذكرى سيئة.

- أعلم أنك كنت صديقًا لراندا ورؤوف.. ولكن يجب أن تكون أقوى من ذلك.. لقد كانا عزيزين علينا جميعًا.

ومد يده إلى صندوق التبغ بجواره وأخذ لفافة ومد يده إليّ بها.. وما إن نظرت إليها حتى لفت نظري طرف وشم على باطن ذراعه يخرج من تحت كم قميصه.. فأمسكت ذراعه بعنف شديد.. وقلت له: ما هذا؟

فارتبك بشدة وقال: ماذا؟ إنه وشم!

لم يخطر على رأسي لحظتها إلا قول الطفل الذي فتح المندل «إنه رجل على يده علامة»..

نعم إنه هو.. والعلامة قد خرج ووضعها على الأرض في تلك الليلة.. إنه الماء الذي رشه على الأرض.. ومررنا عليه جميعًا أثناء نزولنا.. وسابق لم يتعرض للعنته لأنه كان قد رحل.. وأنا مررت على الماء أول مرة بعد أن ودعت «سابق» وشعرت بهشام على السلم..

لقد كان يضع العلامة.. العلامة التي يتتبعها الشيطان ليأخذنا قربانًا.. إنه لم يكن سابق هو الخائن بل كان ذلك الوغد.

أمسكت به وكدت أن أحطم عنقه.. وأقتله خنقًا.. كان يقاومني ولم أدر ما تلك القوة التي دبت في جسدي لحظتها.. لقد كدت أن أفتك به.. لولا أنه مد يده إلى مقبض مقعد السيارة الجانبي.. رفعه فهبط ظهر المقعد إلى الخلف حتى تمدد.. فتناول أداة حديدية كانت على المقعد الخلفي للسيارة وضربني بها على رأسي.. ففقدت الوعي..

لم أدر كم مر من الوقت حتى عاد إليّ الوعي.. فوجدت «هشام» بجانبي يدخن لفافة في هدوء.. وأنا ممدد على أريكة في مدخل منزل..

قلت: أين أنا؟

- أنت في بيتي.

فهممت أن أقوم.

فقال: لا تخف أنت في أمان وأنا لن أؤذيك.

- أريد أن أمشي.

- حسنًا امشِ ولكن أخبرني أولًا لماذا حاولت قتلي؟

فمسحت وجهي وقلت له: أنت السبب في كل ما جرى.

- ما معنى هذا؟

قلت صارخًا: ألست أنت الذي سحرت «رؤوف» وراندا؟ ألست أنت من وضع العلامة علينا وجعلتنا فريسة لشيطانك؟

قال بتعجب: هل تظن أني ساحر؟

- أنا متأكد.. ألم تعلق لنا مقشة.. ونعلين؟

- تظن أني ساحر لأني أضع مقشة ونعلين.. لقد كنت أحاول أن أحمي نفسي وعائلتي من ذلك الساحر الشيطاني..

- نعم أنت ساحر.

- أنت لا تعرف شيئًا.. لم أكن أنوي أن أكشف السر الذي كنت أخفيه.

قلت بضيق: تكلم باختصار.

- لن أتكلم.. تعال معي.

- إلى أين؟

- اصبر.. إذا أردت أن تعرف الحقيقة عليك بالتزام الصمت حتى يتسنّى لعقلك أن يتكلم.

أخذني وصعدنا إلى السطح فوق شقة رؤوف وراندا القديمة والتي كانت في الطابق الأخير.. ووقفنا أمام الباب فأخرج من جيبه قضيبًا حجريًا غريبًا طوله عشرة سنتيمترات تقريبًا..

فقلت له: ما هذا؟

- هذا حجر يسمى عرق السواحل.

- وما هو عرق السواحل؟

- هذا حجر كريم له خواص عظيمة وبه من الطاقة والقوى الخفية الكثير.. إن به سرًا إلهيًا.. فهو حجر حيّ.. وأعظم خاصية له هي فتح الأقفال المغلقة..

- كنت أعلم أنك ساحر.

- لا تكن جاهلًا.. قلت لك هذا حجر له قوى عظيمة لا علاقة لها بالجن.. أو السحر.. هذا الحجر لو وضعته مع بعض حبات طعام كالأرز مثلًا لستة أشهر ستختفي بالكامل.. إنه حي ويتغذى.. إنه من أسرار الطبيعة.

ثم أخذ يسمي ويقول «باسم الحي القيوم» ويطرق بهذا القضيب على مكان المفتاح.. كان الطرق خفيفًا ومتتابعًا.. ولست أفهم ما الذي حدث ولا كيف حدث.. ولكن انفتح الباب فجأة..

قلت له بانفعال: ماذا تفعل؟

- ششششش.. ادخل.

دخلنا السطح ثم مشينا قليلًا في الظلام حتى وصلنا إلى غرفة منعزلة لم أكن أعلم أنها موجودة على السطح.. يختبئ بابها خلف مرآة كبيرة جدًا وقديمة يغطيها التراب.. ظننتها تستند إلى الجدار.. ولكنها كانت هي الباب نفسه.. استخدم الحجر الغريب الذي فتح به باب السطح على طرف المرآة.. فسمعت صوت مزلاج ينفتح.. فجذب تلك المرآة فانفتحت الغرفة.

انفتح نور الغرفة بمجرد أن فتح بابها.. فإذا بها مفاجأة كادت تذهب بعقلي.. إنها غرفة رمادية جدرانها ملساء وعلى الجانب الأيسر من الباب لوحة مربعة سوداء معلقة على الجدار..

شعرت بدوار خفيف.. دارت معه كل الذكريات أمام عيني.. الطفل الذي فتح المندل.. الغرفة الرمادية التي كانت آخر ما ذكره الطفل قبل أن يمضي.. العلامة.. الشيطان.. كلمات رؤوف ونصيحته بأن أحرص على سلامتي..

يا إلهي.. ما هذا الجنون؟

رؤوف هو الساحر؟!

أيعقل أن يكون كل ما حدث كان بسببه؟ أكان هو اللغز وهو الحل؟

نعم أذكر جيدًا أننا سمعنا ليلة أن حضر نزار في البيت صوت تحرك أثاث خشبي وأنبوبة غاز في السقف.. وقالت راندا أن مفتاح السطح هم يملكونه ولا أحد يصعد هناك.. الآن الصورة واضحة.. إنها غرفة الشعوذة بنفسها.. وأنا أراها الآن..

كانت رائحة الغرفة رطبة وعفنة.. على الرغم من أن الأشياء فيها لم يكن يعلوها التراب.. تجولت في الغرفة فرأيت خواتم كثيرة وأحجارًا ملونة.. وشموعًا.. ورقعًا من الجلد.. وزجاجات بها عظام صغيرة.. كان هناك خفاش ميت يبدو أنه كان في وضع التشريح أو التجهيز لطقس ما.. ورأيت ركنًا كاملًا به أسفار كثيرة.. كتاب شمس المعارف الكبرى.. منبع أصول الحكمة.. السر المكتوم.. غاية الحكيم.. كتاب الفلاحة النبطية.. مصاحف الكواكب السبعة.. إنها الأسفار الشيطانية التي كنت أقرأ عنها.. كان هناك من يشكك في وجودها.. وها هي الآن بين يدي.. أمهات الكتب في الشعوذة والعرافة واستحضار ملوك الجان.. أسفار الكفر والشرك واللعنة..

كنت أنظر إلى الأشياء من حولي ولا أكاد أصدق ما أراه.. وكنت أشعر بشعور يعاودني بين الحين والحين من وقتها.. شعور لا أستطيع وصفه.. شعرت بالغفلة والصدمة.. شعرت بالخديعة والخيانة وشعرت بغصة في حلقي.. كل الأفكار كانت تتقاطع في رأسي..

قطع كل هذا هشام قائلًا: لقد حذرته كثيرًا من نتائج ما يفعل.. ولكنه لم يكن يستمع لأحد..

- أنا لا أستطيع أن أصدق عيني..

- معك حق ألا تصدق.. ولكنها الحقيقة.. لقد كان يشتري كتب السحر من كل مكان ويتتبعها منذ كنا في الجامعة.. هو يملك هذه الغرفة منذ سنين ويرفض أن يؤجرها لأي أحد.. بدأ ممارسة الطقوس عندما سافر للخارج.. ثم نقل كل أدواته هنا عندما عاد.. ليستقر هنا.. كنا نسمع كل يوم أصواتًا غريبة تأتي من شقته.. وأحوال غريبة في البناية يشعر بها السكان ولا يفهمون من أين تأتي.. كنت أنا الذي أعرف ولم أشأ أن أفضحه.. ولكنه ملأ البيت بالأشباح.. كان يستحضر الأرواح والشياطين.. كان يرتزق من وراء هذا الأمر كثيرًا.. ولكن لم يكن أحد من مريديه يعرف عنوانه.. كان يقابلهم بعيدًا.. ويصنع طقوسه في البيت.. حتى جاء يوم وقال لي فيه أنه تاب عما كان يفعل.. وترك هذا العمل.. ولكنهم لم يتركوه.

- من هم؟

- الشياطين.. هل تحسب أن الأمر بهذه السهولة.. إنه فخ.. إن طريق الذهاب غير طريق العودة.. إن التقرب من هؤلاء يكون بقرابين وكفر.. وتركهم لا يكون إلا بالموت.. أو التضحية بدم.. هذا ما قاله لي رؤوف بنفسه.

- ولكن ألست أنت من ترك العلامة.. ألم ترش ماءً على الأرض يوم كنا نجتمع هنا؟

- كنت أرش كل يوم بعد الفجر ماءً بملح لأطهر عتبة الدار من أي شيء يمكن أن يؤذينا.. ولا أسمح لأرواحه أن تمر من هنا..

- ولكن المندل قال أن من وضع العلامة رجل على يده علامة..

- هل فتحت المندل؟ وتدعي أنني أنا الساحر؟ حسنًا إنه هو.. لقد كان رؤوف نفسه هو من وضع العلامة.. فرؤوف كان على يده اليمني ندبة كبيرة تركها حرق ليده منذ الطفولة.. وهو أثر ظاهر..

- نعم أعرف ذلك.. ولكن كيف وضع العلامة؟

- ألم يرش عليك شيئًا؟

- لا.

- لعله وضعه لك في الطعام أو الشراب في بيته.

فضربت بيدي على جبيني.. ومرت أمام عيني الأحداث سريعًا: نعم لقد أعطانا جميعًا زجاجات بها ماء وقال إنه زعفران لغسل الوجه والشرب.. ولم يكن سابق موجودًا.. لهذا لم تصبه اللعنة.

ولكن لا أفهم.. كيف أصابت اللعنة «رؤوف» نفسه؟

- لا أعرف ربما شرب من الماء من غير قصد..

- لا.. تذكرت الآن.. يومها قامت راندا بأخذ القليل من الماء من زجاجتها على منديل وجاءت تمسح جبينه بها.. نظر إلى الزجاجة في يدها.. ورأيت على وجهه نظرة لم أفسرها وقتها مطلقًا..



(١٣)

تركت «هشام» في غرفة رؤوف ونزلت أهيم على وجهي.. لم أدر ماذا يمكن أن أصنع.. لقد اختلط كل شيء.. لم يعد شيء بداخلي متماسكًا.. لا مبدأ ولا صداقة.. ولا ثقة.. ولا علم..

مشيت في الطرقات هائمًا على وجهي ليس لي مكان بعينه لأتوجه إليه.. فتوجهت إلى المسجد المعتاد الذي أبيت فيه.. جلست حتى صلاة الفجر.. وبعد الصلاة جلست في جانب المسجد.. كادت عيناي تغفوان عندما رأيت إمام المسجد أمامي.. كان شيخًا كبيرًا أبيض الوجه قصير اللحية.. يبدو على وجهه أثر السنين.. إنه يبدو في السبعين من العمر.. ولكنه صحيح سليم لم ينحنِ ظهره.. وقف أمامي مبتسمًا وقال: أما آن لك أن تتكلم؟

- معذرة ماذا تقصد؟

- أراك هنا كل يوم.. تأتي ذابل الوجه حزينًا مترقبًا.. تصلي وتغفو مدة ثم تذهب.. وأرى حالك يزداد سوءًا كل يوم.. هل بك من علة.. هل تحتاج إلى مساعدة.. إذا اتخذت المسجد ملجأ لجسدك فهو أيضًا ملجأ لروحك.. أنا المسؤول عن هذا المسجد..

- أنا في جحيم يا سيدي ولا أدري كيف سينتهي..

- إن لم يكن عندك مانع فاحكِ لي لعلي أستطيع المساعدة..

- سأحكي لك...

قصصت عليه كل ما حدث منذ بداية الأحداث إلى اكتشاف الحقيقة.. وتعمدت أن أؤكد على ما قاله لي الشيخ في المسجد الكبير.

قال: مبدأيًا لا ينكر تلبس الجن بالإنس إلا من قل علمه.. وضل فهمه.. الجن تمس الإنس والشيطان يؤذي الإنسان.. وقد أتانا من رسول الله فيض من الأخبار عن الرقي والسحر والحرز من الشيطان..

- نعم يُحترز من وسواس الشيطان.

- لا ليس هذا كل شيء..

يقول النبي مثلًا «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير في يوم مئة مرة كانت له حرزًا من الشيطان ذلك اليوم»..

أتراها حرزًا في ذلك اليوم من الوسواس و«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ليست بحرز ذلك اليوم؟

بالطبع لا.. بل لكل منهما عمله.. فالاستعاذة تذهب بوسوسة الشيطان.. والذكر المخصوص هو الحرز الذي يمنع المس والتلبس..

إن الجن ريح.. والريح تدخل جسم الإنسان من فمه أو أنفه.. ولكنها تحتاج إلى باب يُفتح للدخول.. فالفرح الشديد والغضب الشديد والضحك الشديد والفزع الشديد.. كلها تفتح الباب ليدخل الشيطان مع النفس ويجري مجرى الدم.. ونحن نراه ينطق على لسان الممسوس وهو مصروع.. لا ينكر ذلك إلا من لا تجربة له.. ويحكم بما يستحسنه عقله من استحالة ذلك..

فقلت: يا سيدي كيف ذلك وفي القرآن «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان»؟

فقال: أنت تخلط الأمر كسائر الخلق..

هل إذا أمسك بك رجل في الطريق وضربك أو حتى قتلك.. أيكون بذلك له سلطان عليك؟

فرددت: لا.

فقال: بالطبع لا.. ليس الإيذاء بسلطان.. السلطان هو أن يأمرك فتطيعه سواءً كنت راضيًا أم ساخطًا.. هو إذن له سلطان عليك.. يمنعك من عصيانه.. يسخرك له.. أما أن تدخل معه في حرب

فيؤذيك وتؤذيه.. فليس لأحد منكما سلطان على الآخر..

- لقد قال ذلك عالم كبير فكيف أرد قوله؟

- يا بني لقد قال ذلك عن عدم علم.. وليس عن علم بالعدم.. أما من جرب ورأى فلا يسعه الإنكار.. فليس من رأى كمن سمع.. وقد أتانا الخبر الصحيح بأن النبي ضرب صدر الغلام الممسوس وقال «اخرج عدو الله أنا نبي الله».. ترى من أي شيء أمره الرسول أن يخرج عند أصحاب العقول؟

- نعم ولكن المصروع يستجيب للدواء والعلاج والمرأة المصروعة دعا لها النبي ولم يقل لها أنها ممسوسة..

هز رأسه نفيًا وقال: هناك صرع يعرفه الأطباء لا دخل للشيطان به.. وهناك صرع لا يعرفونه وهو ما نراه على الرجل يتخبطه الشيطان من المس..

- ولكن ألستم جميعكم علماء دين واحد.. كيف ينكره أحدهم وتثبته أنت؟

نظر إليّ نظرة آسفة وقال: ما يفتيك به المفتي هو مذهبه ومعتنقه من الآراء المتعددة.. ولا يُشترط أن يصيب رأيه الحق من الأحكام.. فمعتنقه يأتي من اجتهاده وممارسته.. وليس من القراءة والتنظير.. العالم المجتهد هو العالم المجرب الذي تديّن بعلمه.. ومارس الأنساك وعرف العسر واليسر وفرق بين أحوال الناس.. وليس المفتي من يحفظ الحكم حفظًا فيلقيه عليك حال السؤال.. الأحكام متوفرة في الكتب

لمن يقرأ.. ولكن فتوى العالم شيء آخر.. إنها خلاصة فقهه للحياة وصروف الدهر وأحوال الناس.. الفتوى ترتبط بالحياة المتغيرة الصاخبة المزدحمة بالأحداث.. وهذا لا يُدرّس في الكتب.

- ماذا تقصد؟ لم أعد أفهم..

- سأعطيك مثالًا.. يمكنك أن تقرأ الفقه.. ويمتلئ عقلك بأقوال الفقهاء والتفاسير.. ولكن ما يحكم عليك هو ما ملأ قلبك وليس عقلك.. هو الذي يوجهك.. هو الذي يخرج على لسانك.. هو الذي يملأ فتاويك.. يمكنك أن تجيز الخمر المتخذ من ثمرة دون التمر والعنب لأن في الكتب من قال ذلك اجتهادًا.. ولكن لو كان قلبك ورعًا خاشعًا لله.. فلن تتجرأ على الله.. وستحرم الخمر ولو اتخذت من الماء.. وتحكم بخطأ من قال غير ذلك..

فرقٌ بين أن تكون عالمًا تحفظ الأحكام ومواضع الخلاف.. وأن تكون فقيهًا ورعًا تعرف حق الله وترعاه..

- نعم ولكن اختلاف الأمة رحمة وهذا معناه أن أي رأي أخذت فهو حق..

قال مستنكرًا: هذا كلام لا يصح.. ليس كل اختلاف رحمة.. وهناك فرق بين الخلاف والاختلاف.. الرحمة قد تكون في الاختلاف في المسكوت عنه فقط.. سكت الله عنه رحمة بنا غير نسيان.. أما ما حسمه الشرع فالاختلاف فيه فساد..

افهم ذلك جيدًا.. إذا اجتهد عالم في أمر ما وأخطأ فسيكون له أجر.. ولكن اجتهاده يظل خطأ.. فالحق في النهاية واحد.. وليس كل رأي يذهب إليه عالم يكون حقًا.. أيقول شيخ على أمر ما حلالًا وآخر يقول حرامًا وكلاهما يكون صوابًا؟ هذا خلل في فهم الاختلاف.

- أليس الدين يسر؟

قال متعجبًا: وما هو العسر فيما أقول.. هل اليسر في نظرك هو ما ذهب إليه هواك وما استحسنته من أحكام.. هل اليسر هو إنكار ما ينكره العقل.. هل اليسر هو التخفف من التكليف.. هل اليسر هو أن تترك ما يثقل عليك فعله.. هل اليسر هو أن تقترف المعصية بحجة الاضطرار؟

- لا ولكن الضرورات تبيح المحظورات..

- ليس كل ضرورة تبيح محظورًا.. بل حتى ليست كل رخصة مأتية.. فاحتياجك الشديد للمال مثلًا ضرورة.. فهل تبيح لك تلك الضرورة أن تأكل الربا.. أو تسرق.. أو تقتل؟

لو طوع الإنسان كل محظور واستسلم للضرورة لم يبق في الناس دين.. ولم تبق لهم أخلاق.. ولا كان هناك عفة أو شرف.. ستستباح السرقة والفواحش للضرورة..

ثم أي رغبة في نظرك تجزم أنها ضرورة؟ لا يوجد قانون أو ضابط للضرورات.

الرغبة في امتلاك قوت يومك.. أم الرغبة في تأمين مستقبلك.. أيهما في نظرك ضرورة تبيح محظورًا؟

كلها رغبات تُلح على أصحابها ولا يرونها إلا ضرورة.. والسرقة محظور.. والربا محظور.. والقتل محظور.. فأي محظور من هؤلاء تريد إباحته.. وما الحجة التي تبيح أحدهم ولا تبيح الآخر؟

تفكر جيدًا يا بني فالعبادة تحتاج إلى العقل.. ليس العقل الذي يبيح وييسر وينتقد ويرفض التشريع ويتلاعب بالأدلة.. ولكن العقل الذي ينصف ويتورع ويتقي سخط الله.. ولو بسخط الناس.

- أرى أن علاج الساحر هو العلاج الأفضل والأسرع وليس العلاج بالدين.. إنهم.......

قال مقاطعًا: أخطأت.. فلا علاج بالسحر.. لأنه استعانة بالجن.. والجن لا يعين الإنسان إلا بالتقرب له.. والتقرب له يكون بالشرك.. والجن كذوب متلاعب لا يصدُق إلا قليلًا.. قد يخدعك بعلاج زائف ثم يزداد الأمر سوءًا.. وهذا أمر لمسناه بأيدينا.. ولا ينبئك مثل خبير.

- نعم ولكني رأيت بعيني رجالًا مؤمنين.. صلوا واتخذوا كل ما استطاعوا من الذكر والصلاة والعمل الصالح ولا يبرأون من هذه اللعنات..

- هذا ما تظن.. الإيمان يا بني له قانونه الخاص.. فليس كل إيمان هو كما تظنه.. ليس كل من قال أنه مؤمن فهو مؤمن مخلص صادق.. ليس كل إيمان راسخًا.. وليس كل إيمان خالصًا لوجه الله.. ويخلو من

الشرك.. وليس كل إيمان مبنيًا على عقيدة صحيحة.. هناك إيمان يمكنك أن تحيا به في السراء فقط.. وما إن تأتي المحنة حتى تكتشف أنك كنت تعبد اللّٰه على حرف.. يهتز إيمانك وتملأه الشكوك.. المحنة يا بني هي التي تحكم على إيمانك بالقوة أو الضعف.. البلاء هو المحك..

البلاء هو مرآة لا تكذب.. يُعرف فيه الصادق من المُدّعي..

- لقد عانينا.. وكثير من الناس يعاني من مس الجن.. لماذا يعانون بهذا الشكل؟ لماذا يسمح اللّٰه بتسلط الجن على الناس؟ لقد فتح حجر الشيطان الباب أمام عيني.. كيف يُسمح للجن بهذا الطغيان؟

- يا بني لا تظلم نفسك..

لقد حرم اللّٰه الظلم على نفسه وحرمه بين خلقه.. ومع هذا فهم يظلمون.. فليس في هذا ظلم من اللّٰه لأحد.. وليس في ظلم الجن للإنس شيءٌ أكثر من ظلم الإنس للإنس.. ألا ترى كثيرًا من الناس يتعرض لظلم وإيذاء من صاحب سلطة أو جاه أو مال؟ ألا يتربص الناس بعضهم لبعض ويسفكون دماءهم؟

الفرق هنا أن الظالم خفي عن الأنظار..

أما ذلك الباب الذي فتحه حجر السحر فإنه لم يكن مغلقًا قط.

- غير صحيح.. لقد كان مغلقًا أنا متيقن من ذلك.

- قال النبي محمد «إذا ذهبت ساعة من الليل فكفوا صبيانكم.. وأغلقوا أبوابكم واذكروا اسم اللّه.. وخمروا آنيتكم واذكروا اسم اللّه.. وأوكئوا قربكم واذكروا اسم اللّه.. فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا».

أُقسمُ باللّه لو ذُكر اسم اللّه على ذلك الباب وهو يُغلق ما فتحته شياطين الأرض ولو اجتمعوا على ألف عرق سواحل.. ولكننا نغلق أبوابنا ولا نذكر عليها اسم اللّه.

اسمعني يا بني.. لا تسمح للأفكار أن تتلاعب بك وتشك باللّه.. واجه القدر بنفس راضية وتوكل.. لقد شاهدت من يسكنون الغيب بعينك وروحك.. ولقد أصبحت تملك اليقين فيما يشك فيه كثير من الناس.

- ولكني أدفع حياتي ثمنًا لهذا اليقين..

- وهناك من يدفع حياته باختياره فداءً لذلك اليقين.. هناك من يندفع في معركة مضحيًا بحياته وماله وزوجته وأولاده ورخاء عيشه فداءً ليقين امتلكه فملك عليه حياته.. فالحياة الدنيا ليست هي كل شيء.. هناك حياة أخرى أبقى.. وكلنا عائدون إلى ربنا.. فإن قُدر لك أن تكون رحلة عودتك إلى ربك هي رحلة يقين فلا تضيعها بأفكار شيطانية تهز اليقين الذي أهدي إليك..

- إذن ما الذي ينتظره ذلك الشيطان؟ لماذا لم يأت لقتلي.. لماذا يصنع كل هذا بي؟

فقال مشفقًا: لأنه ضعيف.. لا تخدعك الأشكال التي رأيتها.. إنه يتشكل وليس كل شكل يأخذه هو بالضرورة الخلقة التي خلقه اللّه

عليها.. هو بالفعل ضعيف وكيده أيضًا ضعيف.. لذلك فهو يتخذ أشكالًا تحبس الأنفاس.. ويسحب الضوء والطاقة من المكان.. هذا نوع من الاضطهاد.. يضطهد ضحيته حتى يصنع الخوف.. فإذا تواجد الخوف فإنه يتغذى عليه.. يستطيع معه أن يخيل إليك الكثير.. ويرتفع بخوفك إلى الجنون.. وقتها يستطيع أن يفعل بك ما يشاء.. فإذا كنت تريد النصيحة.. فهي ألا تخاف..

إذا كان مقدرًا لك أن تموت فستموت.. ولن يمنع الخوف ذلك.. إذا كان مقدرًا لك أن يكون موتك على يده فالخوف لن يقدم ولن يؤخر.. فلتمت شجاعًا خيرٌ لك من أن تموت خائفًا جبانًا..

- من أين آتي بالشجاعة وأنا أجهل عدوي؟

- بل تعرفه جيدًا.. عدوك ضعيف.. وإن كان به قوة فشجاعتك هي فقط التي تعطيك الفرصة لتقاوم وقد تنتصر.. فإذا لم تنتصر فلن تكون فريسة سهلة.. لا تسمح لنبوءة الطالع أن تجعلك خائفًا.. اطرح مخاوفك جانبًا لتكسر تلك النبوءة.. تعامل معه كلص يحاول أن يتسلل إلى بيتك خفية.. ألن تواجهه وتقتله؟

- نعم.

- حسنًا افعل ذلك وستجد شجاعتك.. تعامل معه كعدو من الإنس يريد إيذاءك.. وقاتل دفاعًا عن حياتك ولا تستسلم للخوف.. الخوف سيقتلك ألف مرة بدون سلاح.. الخوف سيقتل روحك قبل أن يموت جسدك.

- شكرًا لك يا سيدي.. لقد داوت كلماتك جراحًا في نفسي وفتحت لي أبوابًا من الرحمة.. ليتني قابلتك منذ مدة.. كان يمكن لأشياء كثيرة أن تتغير.

- لكل شيء وقته المقدر.. وربما لو سمعت كلماتي بالأمس لم تُصب من قلبك موضعًا.. فالقلوب تتقلب.. اليوم قلبك مفتوح يقظ.. وربما بالأمس كان غافلًا قاسيًا لم تكن تزده كلماتي إلا قسوة ونفورًا..

هل تريدني أن آتي معك؟

تفكرت قليلًا ثم قلت: لا يا سيدي شكرًا لك.. أنا أعرف الآن ماذا سأفعل..

ثم قبلت رأسه وانصرفت..

٭٭٭

ذهبت في ذلك اليوم واستأجرت هذا البيت الذي أحيا به الآن..

لقد قررت أن أتحرر..

أتحرر من القيد الذي كبلني به ذلك الشيطان.. بل كبلني به الخوف..

لن أهرب مرة أخرى..

لم يعد أحد ممن يعرف الحقيقة موجودًا.. أنا وحدي الذي أعرف ما حدث.. من البداية إلى النهاية..

ولقد قررت أن أقصها..

ها أنا أكتب كل ما شاهدته وعرفته.. فقد قررت أن أفضح الشيطان.. أفضح سر قوته.. وأفضح سر ضعفه..

أردت أن أجد طريقة أخرى لكسر اللعنة غير الدم.. قرأت كثيرًا.. وتعلمت كثيرًا مما كنت أجهل.. وتكشفت لي حقائق كنت أجهلها.. ونجحت في منعه عني حتى الآن.. ولكني لم أنجح في جعله ييأس.. أشعر به يطاردني.. أشعر بأنفاسه تلاحقني.. أسمع صوته في أذني أحيانًا.. ولكني لم أعد أخشاه.. إيماني أصبح درعًا يحميني.. في كل ليلة وفي الموعد المحدد أشعر به يحوم حولي.. ولكن لا يقترب أكثر.. عرفت كيف أمنعه.. وما زال يحاول.

لقد عشت في خوف وترقب طيلة الشهور الماضية.. والآن قررت أن أحيا مثل كل الناس.. قررت أن أتخلى عن رهاب المطاردة.. وأحرر نفسي بكتابتي تلك المذكرات..

حتى لو جاءني الشيطان في الموعد.. فلن أكترث.. فلقد أصبحت أملك السلاح الذي أحمي به نفسي.

لم أعد خائفًا بعد الآن..

الآن أشعر أني أكثر حرية..

الآن أشعر أني أستطيع الخلود للنوم.. ويستقر جسدي على فراش.

الآن فقط أشعر بالسلام..

مازن نصر الدين

أغلق مازن مفكرته بعد أن انتهى من كتابة رحلته بين أروقة الشياطين وأسفارهم.. مع صائدي الأشباح.. أو المشعوذين.. أو حتى محاربيهم من رجال العلم والدين.. أخذ يتذكرهم فردًا فردًا.. نزار وسابق وملكته الغواصة.. رؤوف وراندا.. إبراهيم ونبوءة الطالع.. راجي وأمين.. مؤنس والمندل وصلاح الدين.. الغرفة ٤٤٩.. شيخ المسجد الكبير والعالم الذي أنقذ عقله من الضياع..

تنهد تنهيدة طويلة ثم أخذ يفرك عينيه من الإرهاق.. بعد أن أمضى طيلة النهار إلى نصف الليل في الكتابة.. ثم قام ليشرب كوبًا من الشاي.. ويتجول في مسكنه الجديد الذي استأجره منذ شهر.. شقة مفروشة.. أثاثها بحالة جيدة.. ومؤمنة الأبواب والنوافذ.. جيدة التهوية.. دافئة في الليالي الشتوية الباردة كتلك الليلة..

كانت غرفة الجلوس التي يكتب فيها غرفة واسعة مفتوحة.. في أقصى يمينها ممر رفيع يتعامد في نهايته على منتصف ممر ضيق آخر.. هذا الممر إلى اليسار ينتهي بغرفة النوم.. وإلى اليمين بعد ثلاثة أمتار ينتهي بجدار تستند عليه منضدة ذات مرآة كبيرة.. ينعكس عليها باب غرفة النوم.. وفوقها ساعة حائط كبيرة ذات بندول.. إنها إحدى الساعات العتيقة التي تدق على رأس كل ساعة وتشبه دقاتها أجراس الكنائس..

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف.. وقد بدأ التوتر يتسرب إلى قلب مازن قليلًا كالمعتاد في ذلك الموعد.. كان يتجول حينًا ويقف في الشرفة حينًا.. حتى تجاوزت الساعة الموعد المحدد.. واقتربت الساعة من الثالثة صباحًا.. ولم يكن يشعر بما يشعر به كل يوم من الأنفاس والأصوات والمطاردة..

شعر مازن بشيء من الانتصار.. وأخذ يحدث نفسه بأنه على ما يبدو أن ما فعله قد أتى ثماره.. وانكسرت اللعنة.. فأخذ يخطو خطوات واثقة في البيت ذهابًا وإيابًا.. حتى انتهى به المطاف مع الرشفة الأخيرة لكوب الشاي عند المرآة.. أخذ ينظر فيها إلى نفسه.. ويضحك زهوًا وثقة وفخرًا..

دقت الساعة الثالثة.. فنظر إلى الساعة بفرح..

لقد انتهت اللعنة..

ثم استند على المنضدة أمام المرآة.. وطأطأ رأسه لأسفل ضاحكًا..

ولكن ضحكته بدأت في الزوال شيئًا فشيئًا.. عندما سمع صوت صرير باب حجرة نومه في الخلف.. فرفع رأسه برفق ونظر إلى المرآة التي ينعكس عليها باب الغرفة.. فإذا بالباب ينفتح بهدوء شديد.. وإذا عند الحافة العليا من الباب يرى في وسط ظلام الغرفة عينين كجمرتين من النار تتوهجان في الظلمة وتنظران إليه..

ثم...

انقطع النور..

❀❀❀

في السابعة صباحًا وقف هشام مشعلًا لفافة تبغ مرتشفًا إياها في هدوء وأخذ يهز رأسه في رضا وهو ينظر إلى الزحام وعربات الإسعاف والشرطة أمام البناية التي يقطنها مازن.. بينما كان بجواره

الجيران يتحدثون أنهم في الليلة الماضية سمعوا صراخًا شديدًا وصوت زجاج يتحطم.. واستمر الصوت طيلة الليل حتى الفجر ولكن لم تعثر الشرطة على أي أثر لزجاج مكسور بجوار جثة ذلك الشاب المسكين..

التفت هشام راحلًا وهو يتنفس الصعداء.. فاصطدم برجل كان يقف وراءه مباشرة في قوة وثقة واضعًا يديه في جيبه.. فرفع بصره إليه ليتسمر في مكانه من المفاجأة.. وهو يقول: ما.. مازن.. كيف؟

ثم نظر إلى سيارة الإسعاف في فزع وهو يقول: من الذي مات إذن؟

فأخرج مازن يده من جيبه.. فإذا به ممسك حجر عرق السواحل.. أخذ يقذفه في الهواء وعلى وجهه نظرة سخرية ثم قال:

لم تعد وحدك من بإمكانه أن يضع العلامات.

- تمت -

